

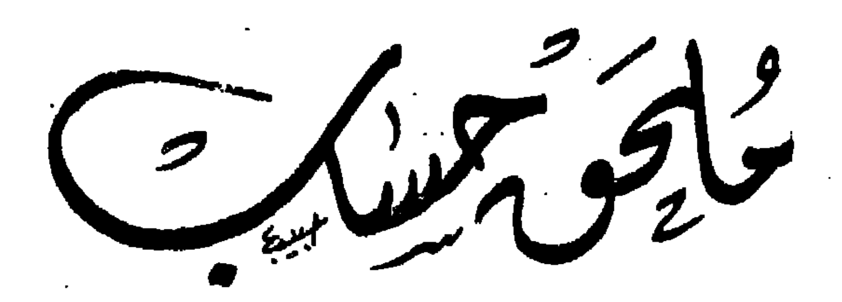
يوسف السباعى

يطلب من مكتبة مصر
٣ كامل صدقى - الفجالة

مقـــدمـــة

ان حياة الكاتب ليست ملكا خاصا به .. بل هى ملك مشاع بين القراء ... ولا يمكن حجبها عنهم . وهم ان لم يلتقطوها متناثرة فـى كتاباته ... قدمها اليهم النقاد مكشوفة فى تراجمه ... وأنا هنا أقدم لكم قطعا من حياتى اقتطفها كما هى وألقى بها اليكم عارية مجردة ... لا أثر فيها لخيال قاص أو ابتكار مؤلف ... وبيدى لا بيد عمرو .

« يوسـف السبـاعى »



هل الله موجود بالطريقة الواقعية البسيطة الساذجة .. التى يتخيلها الأطفال ؟

هل هو جالس فوقنا يطل علينا من سمائه ويرقب حركاتنا من عليائه ؟

هل هو ينصت الينا .. ويستمع لدعواتنا .. ويحقق رجاءنا ؟

هل هو كائن حيث نتطلع اليه فى صلواتنا .. بعيون مسبلة وأصوات هامسة مبتهلة .. وقلوب خائفة واجفة .. وهو .. بقدرته وعظمته .. ورحمته .. جالس على عرشه .. بعين نافذة وأذن واعية .. ونفس مستعدة ملبية ..

لا عمل له الا عون المحتاج .. وغوث الملهوف ؟ ..

هل هو كما نتخيله ونوده .. فى أمراضنا .. وأزماتنا ؟ .. منتظر .. جاهز .. ملب .. كأنه مركز اسعاف ... أو بوليس نجدة ..

طافت بذهنى كل هذه الاسئلة .. عندما شاهدت صبيا صغيرا .. وضع الطربوش على رأسه .. وانهمك فى الركوع والسجود .. وأخذ يهتف بحرارة ويدعو بالحاح وإصرار .. كأنما يستحث الله .. أو يتعجله أو يؤكد عليه .. لكيلا ينسى ..

ربما كان يريد منه .. أن يهدى أبويه لكى يذهبا به الى السينما .. أو يمنحاه بضعة قروش لاستئجار عجلة .. أو ربما كانت المسألة أخطر من هذا .. ربما كان لديه ملحق ..

أنا شخصيا .. مررت بمثل أزمته .. وركعت ركعاته .. وسجدت سجداته .. وهتفت بأحر من دعواته .. ورجوت الله بأشد والح من رجائه ..

كنت فى أشد الحاجة الى الله .. ولم يكن أمامى غيره .. كان الوقت ضيقا .. ولم يكن بسواه يستطيع أن يفعل شيئا ..

كان لدى ملحق حساب فى الابتدائية ..

وقد وقعت الواقعة .. فى عام ١٩٢٨ .. وأنا فى الحادية عشرة وكنت قد رسبت فى امتحان الابتدائية .. وأحدث رسوبى ضجة سخط وحزن فى العائلة .. عدا أبى طبعا الذى لم يأبه قط لنجاح لى أو سقوط لا لأنه يأبه لى .. بل لأنه لا يعتبر الشهادات ولا يهتم بالمدارس وما يتبعها من مذاكرة وسقوط ونجاح .. وقد كتب عنه المازنى يصف تقديره للشهادات بقوله:

« ومن مظاهر استخفافه بما يعتز به الناس وإن كان غير ذى قيمة فى ذاته أنه ترك دبلومه التى تخرج بها فى مدرسة المعلمين العليا عند صاحب - قهوة الحقوق - بحى عابدين وهو رجل رومى كنا نألف مقهاه ، ويكثر اختلافنا اليه ، ولا أعلم هل ضاعت أو لم تضع ، ولكن الذى أعلمه هو أن هذا المكان كان مبلغ احتفاله بهذه الدبلوم التى لعل غيره يعلق مثلها فى داره فى إطار من فضة أو ذهب » .

ذلك كان تقدير أبى للشهادات ولكن بقية أهل البيت لم يكونوا فلاسفة كأبى .. فأحدث سقوطى شبه مناحة .. ولم يخفف نجاح أخى محمود .. من وقع الصدمة .. فقد كانت الابتدائية شهادة .. وكان سقوطى وقتذاك .. يعتبر ضياع شهادة .. من البيت ..

وعندما اتضح أن لى ملحقا فى الحساب .. بدأ الملحق كطوق النجاة .. وبدأت جهود العائلة (أعنى أمى وخالى فقد كان أبى خارج الحلقة فى كل ما يختص بالشئون المدرسية التافهة فى نظره) أقول بدأت جهود العائلة تحشد فى سبيل انقاذ الشهادة الضائعة .

وكان على أن أدرس ليل نهار .. دراسة كان يمكن أن تتيح لى الحصول

على دكتوراه فى الاقتصاد .. وليس مجرد المرور فى ملحق حساب فى الابتدائية ..

التحقت فى الصباح بمدرسة وادى النيل الابتدائية الأهلية .. وكانت تفتح أبوابها للدراسة الصيفية لأهل الملاحق الخيب من أمثالى ..

أما بعد الظهر ، فكنت أقضيه فى درس خصوصى عند رياض افندى مدرس الرياضة والاخ الاكبر لصديقى حبشى زميلى فى مدرسة محمد على الابتدائية وجارى الدائم فى فصولها .

وكنا نقطن وقتذاك فى جنينة ناميش فى بيت يطل على محطة سكة حديد حلوان وعلى شارع الخليج وكوبرى المنيرة وكانت مدرسة وادى النيل كائنة فى ميدان السيدة .. أما بيت حبشى أو المقر الدائم للدرس الخصوصى ، فكان فى آخر شارع زين العابدين حيث يطل على قماين الجير ، وجيل الجيوشى ..

أما عن الدراسة فى مدرسة وادى النيل .. فقد كان وقتنا خلالها ضائعا فى كل شىء .. الا دروس الحساب ..

كانت العملية الكبرى التى تشغلنا فى المدرسة .. هى اسقاط أكبر قدر من البلح الأخضر من ثلاث نخلات فى حوش المدرسة .فإذا ما أتممناها بنجاح كان علينا أن نذهب الى كنتين المدرسة لأكل ما تيسر من الطعمية .. ثم التجول فى فصول المدرسة الخالية .. والصعود على السطوح لنشرف على حركة المرور فى ميدان السيدة .

وكان المدرسون من أندر العناصر فى المدرسة .. بينما كان الفراشون يظهرون بوفرة .. وكان الضابط .. والوكيل يتناوبان رياسة المدرسة .. أما الناظر فكنا نلمحه أحيانا .. وكان يسألنا :

- مبسوطين ياولاد ..
- وكنا نجيبه دائما :
- مبسوطين يابيه .

ولم يحاول بالطبع أن يسأل عن سر انبساطنا .. أهو خلو المدرسة من

المدرسين .. أم الثلاث نخلات .. أم طعمية الكنتين .

وعندما كنا نضيق بالمدرسة..ونملأ بطوننا بلحا وطعمية.. وننتهى من كل أنواع العبث بها..ونسكب الحبر من جميع الدويان ونكل من العدو فى السطوح ومن لعب الكرة كنا نلجأ الى جامع السيدة.. حيث نرقب المجاذيب فى الميضة ثم نتوضأ.. ونصلى وندعو الله أن.. يأخذ بيدنا.. ويكلل جهودنا بالنجاح..

وكنت أحس براحة كبرى وأنا أجلس فى رحبة الجامع الفسيح مستندا الى أحد أعمدته ممدداً ساقى فوق سجاجيده الحمراء السميكة .. متطلعا بعينى .. الى فراغه العريض وسقفه المرتفع .. متخيلا الله مطلا على من مكان ما فى هذا السقف .. وأنه سيتولى عنى مهمة الملحق .. وأنه لا شك قد أجرى اللازم مع رسله .. وأوليائه .. وعلى رأسهم السيدة زينب .. لإنجاحى فى الامتحان ..

تلك كانت دراستى الصباحية .. أما دراسة بعد الظهر فكنت أبدأها بانتظار اول عربة حنطور .. تحملنى - وراءها بالطبع - الى مقر دراستى .. بيت صديقى حبشى .. على سفح جبل الجيوشى ..

وعند أول كرباج .. على ظهر الراكب طبعا .. وليس على ظهر الحصان .. أو عندما تنحرف العربة عن الطريق الى البيت .. أقفز منها .. لأقطع بقية رحلتى الدراسية سيرا على الاقدام ..

وعندما أصل الى الدار .. كنت غالبا لا أجد المدرس .. فقد كان - مساه الله بالخير - فى ندرة مدرسى وادى النيل .. من المتعذر لقاؤهم .. وفى الاوقات النادرة التى أجده .. كان يوشك أن يغادر البيت فينبئنى أنه قد ترك لى الواجب .. ويسألنى السؤال التقليدى الذى كان يسأله إيانا ناظر المدرسة . هل أنا مبسوط .. وبالطبع أجيبه بأنى مبسوط .. فيهبط بقية الدرج دون أن يسألنى عن سر انبساطى . ودون أن يعرف أن جزءا كبيرا من هذا الانبساط مرجعه الى قلة لقائه .. والجزء الباقى من الانبساط مرجعه إلى أنه لا يحاسبنى على الواجبات التى لا افعل منها شيئا ..

وأدخل الى الدار لأجد فى استقبالى دائما .. نائبه .. حبشى .. صديقى العزيز ممسكا بعصا طويلة .. كنا نستعملها مدقا ندق به الأرض .. أو بتعبير أدق .. مجسا .. نجس به الكنوز المخبوءة فى بطن جبل الجيوشى .

وأقذف بكتاب الحساب وبكراريس الواجبات على طول ذراعى . ثم أتأبط ذراع صديقى .. ونائب مدرسى .. لنبدأ رحلتنا اليومية فى البحث عن كنوز جبل الجيوشى .. وقد أمسكنا بالمجس .. أو بعصا .. موسى ..

ونقضى الساعات نطوف بالجبل .. هابطين صاعدين وفى كل خطوة ندق بالعصا على الأرض بضع دقات علنا نسمع صدى .. ينبئنا عن تجويف فى باطن الأرض .. وضع فيه الكنز ..

ولست أدرى ما الذى دفعنا الى الاعتقاد بأن هناك كنزا مخبوءا فى باطن الجبل .. ولكن الذى أذكره أننا كنا نعرف أن هناك بقايا مدينة غابرة عفا الزمن على طللها وغطت الأتربة أنقاضها .. وبدأنا بهذه المعرفة سلسلة من الاستنتاجات المنطقية . المدينة لا بد أن يكون بها ناس .. والناس لا بد أن يكون لديهم مال والمال لا بد أن يكون مخبوءا فى الدور .. والدور مدفونة تحت الانقاض .. فلو عثرنا إذاً على بيت من هذه البيوت .. فلا بد أن نجد المال .. وإذا وجدنا المال .. اغتنينا .. وإذا أغتنينا .. لم يكن بنا حاجة الى التوظف .. فليس بنا حاجة الى المدرسة .. وبالتالى .. الى المذاكرة والى ملحق الحساب .. وهكذا اقنعت نفسى ببساطة .. أنى لا أعبث بهذه الرحلات .. بل أسير فى نفس الطريق والى نفس الغرض الذى يمكن أن يؤدى اليه نجاحى فى ملحق الحساب .. وأنى - إذا قدر الله لى الحصول على الكنز وليس ذلك عليه ببعيد بعد قضائى ربع يومى فى بيته متعبدا الى جوار أوليائه - فإنى سأصبح من أصحاب الملايين .. وأستطيع بمنتهى البساطة أن أفتح عشر مدارس .. كمدرسة وادى النيل .. وأملأ فناءها بلحاً .. وكنتينها طعمية ..

وأذكر أننا أوشكنا فى النهاية على أكتشاف الكنز ، فقد سمعنا ذات يوم لضربات عصانا صدى .. ينبىء عن تجويف فى باطن الأرض (اتضح فيما بعد أنه جامع بعد أن كشفت عنه مصلحة الآثار) ولم نشك فى أنه الكنز

المفقود .. ولم يوقف استمرارنا فى الكشف عنه .. الا حلول موعد الامتحان .. وتوقف رحلاتى الدراسية .

ودخلت الامتحان .. وخرجت منه بعد أن لخبطت ما شاء الله على اللخبطة .. وكان الامتحان مليئا بمسائل الحنفيات والبالوعات التى لم أكن أكره وقتذاك سواها .. والتى جعلتنى حتى الآن أضيق بمناظر الحنفيات والاحواض والبالوعات .

وكان خالى قد أوصانى بأن أكتب أجوبة المسائل على ورقة الاسئلة حتى يطمئن على نجاحى ..

وكتبت الاجابات .. ثم ذهبت الى مدرسى ..

فراجعها وكتب لى الاجابات الصحيحة .. ولم يكن هناك أية صلة أو شبه صلة بينها وبين اجاباتى .

وفى الطريق قطعت اجاباتى واجابات المدرسة من هامش الورقة وعندما عدت الى البيت أنبأتهم أن اجاباتى صحيحة كلها .. ولكى أسبك الكذب استثنيت مسألة واحدة هى التى أخطأت فيها وهى مسألة البالوعات .

وعندما سألونى عن سبب تمزيق ورقة الاسئلة أنبأتهم أنى تسليت بقرضها أثناء عودتى .

ومرت بضعة أسابيع ثم قرب وقت إعلان النتيجة .. وفى يوم أغبر .. قيل ان النتيجة قد أوشكت على الظهور وأنها ستعلن فى الصحف قبل العصر .

وكان لى زميل حميم يزاملنى فى الملحق ويشاركنى الدراسة الصيفية فى مدرسة وادى النيل .. وفى التعبد فى جامع السيدة ولست أنكر الآن أسمه الاصلى وإن كنا قد تعودنا أن نسميه بأبى جبل .

وكنت قد أوصيته إذا استطاع معرفة النتيجة قبلى وكنت ناجحا أن يمر بى لينبئنى بها .

وفى ظهر ذلك البيت سمعت ضجيجا فى حوشّ البيت .. وأطللت من

بئر السلم فإذا بصاحبى ينادى على ، قائلا :

- النتيجة ظهرت .
- وعملت ايه .
- أنا نجحت .
- طب وأنا .
- أنت سقطت .

وهكذا بمنتهى البساطة القي القنبلة .. وانطلق .
وسمع أهل البيت بالنبأ فبدأت المناحة .. وبدأت جميع صفات الخيانة تتهاوى على رأسى .

وأحسست بحزن شديد .. وسرت الى حجرة صغيرة كنا نستذكر بها .. وجلست واجما يائسا .. ولكن لم يطل بى الجلوس الا لحظات .. ثم تذكرت الله .. فغدوت الى الحمام وتوضأت .. ثم أغلقت على باب الحجرة وبدأت الصلاة ..

لست أدرى .. ما الذى دفعنى اليها . وماذا كنت آمل فيها بعد أن عرفت النتيجة وأيقنت من سقوطى .

ومع ذلك اندفعت فى الصلاة بحرارة .. لم تكن صلاة .. بالطريقة التى تعودنا بها أن نؤدى الصلاة .. كانت توسلا .. كانت رجاء الى الله الذى كنت واثقا أنه يطل على ويسمع دعائى .. ويفهم شعورى .. ويقبل ندمى ويقدر توبتى ، ويستطيع أن يحقق رجائى ، والا يخذلنى أمام الأهل .

ومكثت أصلى فى إصرار وأدعو فى الحاح ..

لا ركعة ولا ركعتين .. بل صلاة مستمرة .. حتى سمعت بائع صحف ينادى .. بصوته المنذر (نمر التلامذة الابتدائية) .

ولم اتحرك من مكانى .. ولم أقفز ولم أعد الى البائع .. بل ظللت فى ركوعى وسجودى .. ودعائى .. وتوسلى الى الله .

وفجأة فتح الباب ووجدت أخى محمود يندفع الى كالصاروخ صائحا :

- يوسف .. أنت نجحت .

ولم أصدق .. وأمسكت بالصحيفة لاقرأ الأرقام من خلال دموعى فوجدت رقمى .. وعدت لأقرأه مرة ثانية وثالثة والتأكد من اسم المدرسة .. مدرسة محمد على الابتدائية .

وتركت جسدى يسترخى .. وأعصابى المشدودة تستسلم .. ونظرت الى أعلى .. وأنا أحس بشكر فائض .. وحمد عجيب .. لقد بدأ لى الله .. وكأنه يبتسم فى رضاء .. ويقول لى « مبسوط يا عم .. أديك نجحت .. بطل لعب بقى » .

تلك هى المرة التى أحسست فيها الله قد سمعنى وأجاب على إجابة مباشرة .

لقد دعوته بعد ذلك كثيرا .. فكان يجيبنى إجابة بطريقة غير مباشرة .. أو بطريقة « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم » .

وكنت أحمده .. حمدا مباشرا أحيانا .. وحمدا بطريقة « الحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه » أحيانا أخرى .

وبعد .. أنا أؤمن بأنه دائما موجود وأنه دائما يلبى دعواتنا ولكن بطريقته الخاصة .

فى عام السباحة

لا تزال كلمة « دفعة » فى قاموس الجيش تعنى عزيزا .. فالدفعة هم الذين يدخلون الجيش فى دفعة واحدة سواء كانوا جنودا أم ضباطا . ومعزة الدفعة ناتجة من فرط الصحبة وطول العشرة .. وقد تضرب أيدى الزمن بين الدفعة وقد تباعد الظروف بين أحدهما والآخر فيفترقان ولا يلتقيان الا وقد اشتعل الرأس شيبا . ومع ذلك لا يكاد أحدهما يلقى صاحبه حتى تتهلل منه الأسارير وتنفرج الشفاه وتنبسط الملامح ويهتف كل منهما « أهلا .. أزيك يا دفعة » .

عندما أجلس الآن لأذكر الدفعة وأعود بذهنى القهقرى لسنين خلت وأعود لأطوف بالكلية متسللاً وبنفسى كثير من خشية ورهبة لا أظنها الا ملازمة ذكريات كل من مر بالكلية الحربية .

عندما أجلس لأذكر الدفعة .. أرانا قد وقفنا فى « الجرة » (والجرة عند من لا يعرف هى الطرقة الممتدة أمام عنابر النوم) وقد بدأ منظرنا لا يسر الناظرين .. برؤوسنا الحليقة التى جارت عليها ماكينة الأسطى خير فأودت بالأخضر واليابس . وتركتها ملساء من غير سوء كأنها الزلطة أو قرعة البوظة . وقد ارتدينا لبس الالعاب المكون من قميص ابيض بدون ياقة . وحتى الآن – وبعد أن حصلت على شهادة الأركان حرب – لم أستطع أن أفهم السر فى إصرار المهمات على تفصيله بلا ياقة .. وأسفل القميص يستند على حجزنا بنطلون ترواكار وفى يدنا قايش الوسط المفروض أنه يرفع البنطلون ولكنه كان من فرط سعته فى حاجة الى من يرفعه فرفعناه بأيدينا ، وأسفل هذا شراب

من الصوف البنى الخشن ثم حذاء عريض البوز منبسط النعل من القماش الأبيض المرصع بالجلد .

وكان حريا بنا أن نشعر بخيبة أمل .. ومع ذلك فإننا لم نشعر بها .. لأن سلسلة الأحداث التى توالت علينا .. لم تدع لنا الفرص لأن نشعر بشيء .. لا أمل .. ولا خيبة أمل .

حلق الرأس ثم الاصطفاف أمام البلوكامين حافظ أو موسى لست أذكر ثم لفع كيس المرتبة المليء بالمهمات فوق أكتافنا وحمله الى العنبر ثم ارتداء الملابس الوجيهة التي أبدتنا كالطير المنتوف الريش ، ثم السير الى الحمامات ولبسنا زوجا من الأحذية ذات الرقبة الطويلة والنعل الحديدى التى تركتها المهمات بلا صباغة ولا لون حتى نتكفل نحن بصبغها . وبيسارنا حق من الورنيش به حوالى أربعة أرطال ورنيش لا يلمع الحذاء الا اذا بصقنا عليها وعليه .

كل هذه الضجة .. لم تترك لنا فرصة للتفكير .. فقد أُخذنا كما يقول المثل على مشمنا ومن ورائنا الصف ضباط يمارسون فينا صنوف الادارة وضروب التريقة والامارة ويردون الينا الأسى الذى حملوه من سابقيهم كأنه نذر لا بد أن يوفيه كل جيل من أمثالهم الصف الضباط للجيل الذى بعده من أمثالنا المستجدين .

وهكذا أخذت تمر بنا اللحظات والساعات والأيام .. ونحن من تعبنا أشبه بالدائرين فى دوامة لا نكاد نحس بشيء مما حولنا أو أشبه براكب القطار لأول مرة لا يكاد يستقر بصره على منظر حتى يكون قد اختفى .

وعندما أقول اننا كنا من فترتنا الأولى فى الكلية أشبه بالدائرين فى دوامة لا أقولها على سبيل المجاز أو المبالغة لانى فى الواقع لا أستطيع الآن أن أرسم صورة واضحة لتلك الفترة .. فقد كان كل شيء يمر بنا بسرعة وكنا فى عملنا من فرط الجهد والارهاق قد امتنع علينا فيه التفكير .

صحيان قبل النوبة خوفا من النوبة وعدو من العنبر الى الحمام ثم من

الحمام الى العنبر وحلاقة فى عجلة ، ثم فرش البطاطين وطيها وضبط مقاسها ، ثم لف القالشين وفكه ثم لفه مرة أخرى وفكه ثانية ، ولفه ثالثة حتى نضبط التوكة فى مكانها المضبوط بجانب الساق كأن انحرافها من مكانها سيسبب انحراف دورة الفلك ، وعدو الى الشاى وعدو من الشاى ولبس أول ولبس ثان و .. و .. كل ذلك كان هناك انسانا قد أمسك من يديك وظل يدور بك بلا توقف حتى يقذف بك آخر اليوم على فراشك وانت فى شبه اغماء ، ولم أقول فى شبه ؟ وقد كنا نأوى الى الفراش فى التاسعة .. وفى التاسعة ودقيقة واحدة نكون فى سبات عميق .

وفى وسط هذه الدوخة بدأت أميز أفراد الدفعة .. أو شركائى فى البأساء ، وكان أول من استطعت تمييزه هو الزميل قره .. اذ كان هناك بعض الشبه بيننا وبدأ هذا الشبه يوقعنى فى مشكلة لا قبل لى بها .. إذا اختلط الشبه على الباشجاويش عبد العليم التعلمجى الذى لم أكن ارى فيه إلا عينين تبرقان فى منتصف رأسه وصدغين عريضيين لا تفتأ ضروسه تتلاعب من ورائهما علامة الغضب .

كنت فى دوامة الرهبة الأولى .. أخشى كل انسان وكنت أبذل كل جهد حتى لا أخطىء فأجازى . ولذا كنت أقف أو اسير فى الطابور وأنا أبالغ فى كل ما يطلب منا من ابراز صدر الى رفع هامة الى شد قامة ، ومع ذلك كنت لا أفتأ أسمع صوت الطيب الذكر الباشجاويش عبد العليم ينهرنى بين آونة وأخرى بصوته الأجش صائحا « شد حيلك ياسباعى .. افرد صدورك ياسباعى » الخ .. وهكذا ظللت اشد حيلى وأفرد فى صدرى حتى كدت أوشك على الانفجار وصاحبنا مستمر فى نهره ، وأنا تزداد بى الخشية والرهبة عندما أجد أن رشاشا من اللوم والنهر قد يبلغ أذنى ضابطنا الحبروك .. فتسوء سمعتى لديه سماعا .

وكدت أيأس من الأمر عندما أدركت فجأة أن عبد العليم يخلط بينى وبين قره .. وانه عندما يخطىء قره أنهر أنا لانى رأيته مرة يلتفت وراءه فيصيح

به عبد العليم « بص قدامك ياسباعى » ثم ينظر الى وأنا واقف كالصنم ويقول « كويس قره » .

وهكذا ادركت أنى اتبع الطريق الخاطىء لانقاذ سمعتى وان كل مجهود بذلك يذهب لحساب قره . وأن قره لن يحاول أن يبذل أى مجهود لحسابى ما دام اسمه يتمتع بهذه السمعة الطيبة بلا أى جهد وما دام يخطىء فانهر أنا . ولم تخطر ببالى بالطبع فكرة أن أنبه الأخ عبد العليم الى خطئه وأن فهمه أنى لست قره وأن قره ليس أنا . فقد وجدت أن هذا ضرب من ضروب العبث فقد كان الكلام فى الطابور جريمة كبرى وبعد الطابور لم يكن لدينا وقت للكلام فقد كنا ننطق كالفيران المنزعجه لنبدل ملابسنا ولنذهب الى الفصول أو لنفعل أى شىء أو حتى لنفعل لا شىء وانما نجرى لأن المشي أو الوقوف كان يعتبر أمرا منكرا .. وكان لا يجرؤ على الاقدام عليه الا كل مغامر .. ولم أكن فى يوم من الأيام من المغامرين .

ثم هبنى استطعت أن أقدم على محادثة « الغول » عبد العليم وأنى غامرت بإفهامه خطأ ظنه . فهل تره سيتنازل بالاعتراف بالخطأ .. وهل تراه سيعترف أنى أعرف أسمى أكثر منه وهو الذى يحفظ قانون البياده صم .. لا أظن .

وأخيرا منّ الله علىّ بالحل السعيد وأؤكد لكم أن الله هو الذى من على به .. لأنى لم أكن أجرؤ قط على التفكير فيه أو الاقدام عليه إن لم يدفع به الله الى بطريق الصدفة .

فى ذات طابور . شرد بى الفكر . ونادى عبد العليم على الطابور لليمين در .. فاستدار الكل لليمين .. واستدرت وحدى لليسار .. وثار عبد العليم وهاج ولعبت ضروسه من وراء اصداغه وبرقت عيناه فى منتصف رأسه .. ثم شتم قره .

وبلعها قره ، وعدت أنا الى مكانى فى الطابور بسرعة .. وتلفت يمينى أسترق النظر الى القره لأرى وقع الأمر عليه .. فصاح بى عبد العليم « بص قدامك قره .. بلاش مسخرة » ولا شك أن قره قد أحس لأول مرة بوقع

النهر فشد قامته وأبرز صدره .. وصاح عبد العليم لا فض الله فاه « كويس سباعى » .

وكدت من فرط الفرح لانقلاب الحال .. أن ارفع يدى الى رأسى بالتحية شاكرا وأحييه « دا من أصلك » لولا أنى خفت أن تحل بقرة كارثة .

وأحسست لاول مرة بنشوة الانتصار فى هذا الطابور وكلما استمرأت الخطأ ازداد النهر على قره وكلما ازداد النهر على قره ازداد نشاطا وحرصا فى الطابور .. وازددت أنا مديحا حتى انتهى الطابور ..

واستمر كل منا بعد ذلك يتحمل مساوىء الآخر وحسناته فى الطابور حتى انتهى تعليم المستجدين وتخلصنا من عبد العليم .

وهكذا كان قره أول شريك لى فى بأساء الطابور .. أما الشزيك الثانى الذى بدأت أميزه فى الدفعة .. فقد كان شريكا فى بأساء الحمام .. أعنى حمام السباحة .

كان طلبة المدرسة وقتذاك لا يتجاوزون الخمسين ، وكانت الالعاب إجبارية ولم يكن معنى هذا أن كل طالب يلعب اللعبة التى يجيدها وأن هناك فرقا رياضية يكونها طلبة المدرسة . بل كان على كل طالب أن يلعب كل لعبة .. سواء أجادها أم لم يجدها .. وسواء أكانت مواهبه وامكانياته تمكنه من ممارسة اللعبة أم لا تمكنه .

كان المفروض على كل طالب أن يلعب الملاكمة وأن يقفز الحواجز وأن يقذف الجلة وينط عال وطويل ويعدو المائه ياردة والميل واختراق الضاحية .. التى لا تقل عن أربعة الأميال .. وبعد هذا يعبر الحمام سباحة .. فان لم يعبره .. فهو لن يرى الطريق بعينه حتى يتعلم كيف يعبره .

ولم يكن لى سابق خبرة بأى نوع من الألعاب الا كرة القدم كنت أباشرها خلسة وأنا تلميذ فى مدرسة شبرا الثانوية . فقد كانت والدتى تحرم علينا أنا وأخى كل انواع الرياضة اذ كانت تجد فيها هى وركوب العجل والتجذيف خطورة على حياتنا . وكنت أحتفظ بلبس الكرة عند بواب المدرسة ولا أجرؤ

قط على حمله الى البيت ولا سيما بعد أن أصيب أخى الاكبر ذات يوم فى لعب الكرة بجرح فى حاجبه وحضر الى الدار محمولا على عربة اسعاف .

ولم يكن لى بالطبع أى دراية بالسباحة . بل لا أذكر أنى انغمرت قط تحت مياه غير مياه الدش .. لا حمام سباحة .. ولا نيل ولا حتى ترعة .. اللهم الا مغطس حمام الناصرية الذى أذكر انى نزلت به مع والدى ذات مرة وأنا فى السادسة من عمرى .

ولم يكن هناك بالطبع شبه كبير بين مغطس الناصرية وحمام الحربية ولم تكن خبرتى فى الاستحمام تحت دش تعطينى أى نوع من مبادىء السباحة . ولذا وجدت نفسى اقف وشركائى فى البأساء وقد أخذنا ننظر الى بعضنا البعض فى حيرة وجزع .

وكان ضابط السباحة هو اليوزباشى على عامر وكان الصف ضابط المسؤول هو الشاذلى ، وهو أصدق أصدقائى الآن وألد اعدائى وقتذاك .

كانت طريقة تعليمنا السباحة هى الطريقة العملية المثلى .. ولكنها كانت أيضا الطريقة التى تجعل حمام السباحة شبحا ينغص علينا حياتنا .

كنا نقف على حافة الحمام من الناحية العميقة .. ونحن .. الخمسة أو الستة زملاء التعساء .. نؤمن بالله ونؤمن بقوله تعالى ﴿ لا تلقوا بأيديكم الى التهلكة ﴾ وكنا بلا جدال لا نجد فى الحمام الا تهلكة كبرى .. ومع ذلك لا يكاد الشاذلى ينادى « استعد انزل » حتى نكون قد اطعناه وعصينا الله .. وألقينا بأيدينا الى التهلكة الا واحدا منا .. هو الأخ بدر الدين .. فقد كان لا يلقى بيديه بل برجليه .

وتفصيل الأمر أن بدر الدين شريكى الأول فى بأساء السباحة .. كان أبعد الناس عن كل أنواع الرياضة .. لا كرة ولا جرى .. ولا أى شىء .. وكنا عندما نقفز بأنفسنا فى الماء نحاول أن نبذل جهدا مضنيا .. ونظل نضرب بأيدينا وأرجلنا .. لا فى سبيل العوم .. بل فى سبيل البقاء على قيد الحياة أطول مدة .. حتى نصل الى منتصف الحمام ونشرف على الغرق فيهبط بعض معلمى

الحمام لانقاذنا . كنا نحن نفقل هذا ، أما الأخ بدر الدين فلم يكن لديه أى أمل فى المقاومة .. بل كان ينظر الى المسألة بمنتهى اليأس .. وكان يعتبر نفسه فى كل مرة يلقى بنفسه فى الحمام منتحرا .

كان يقف معنا على حافة الحمام .. وعندما كان ينادى الشاذلى « استعد » لم يكن هو يحاول الاستعداد أبدا .. بالطريقة التى يستعد بها السباحون .. لأنه قطعا لم يكن يعتبر نفسه سباحا بل منتحرا ولذا فقد كان يستعد بطريقته الخاصة .. كان يرفع يده الى رأسه الذى بدأ به بشائر صلع . ثم يأخذ فى هرش البقية الباقية من شعره .. وقد بدا عليه أقصى ايات الشرود وأجده قد أخذ يتمتم بشفتيه واغلب ظنى الآن أنه كان يقرأ الفاتحة أو شيئا من هذا القبيل ..

وعندما ينادى المنادى انزل . لم يكن ينزل كالسباحين هابطا بيديه ورأسه . بل كان بمنتهى البساطة يقدم رجلا ويدبها فى الماء ووراءها الرجل الأخرى . ويهبط فى الماء هبوطا رأسيا كأنه قطعة الحجر اعنى هبوطا لا طلوع بعده .. ولا نعود نبصر من بدر الدين اى اثر اللهم الا بعض فقاقيع الهواء التى تدل على أن صاحبنا يموت غرقا .

ويهبط السباحون وراءه ليبحثوا عنه فى قاع الحمام ثم يخرجوه .. ليعود على عامر والشاذلى الى الالقاء به معنا فى قاع الحمام مرة أخرى .

وعندما كان يحل بنا الاعياء ، ولا تكاد اقدامنا تحملنا ، كان اليوزباشى يأمر الشاذلى بالانصراف بنا لاننا قد أنهكنا .. فلا نكاد نحس الخلاص حتى نجد الشاذلى صاح بنا « انصراف ازاى يا فندم ، دول ماتعبوش .. دول بيستهبلوا » .

ولم يكن لى فى ذلك الوقت عند الله تعالى سوى أمنيتين .. الأمنية الأولى أن تهب عاصفة رملية مريعة لم تعهدها مصر . لكى تردم حمام السباحة .. والأمنية الثانية أن يكون الشاذلى فى قاع الحمام قبل أن تردمه العاصفة .

والعجب فى صاحبنا أو عدونا الشاذلى .. أنه - رغم اعتقادى وقتذاك أنه من ابطال السباحة - كان لا يجيد السباحة . وأنه لم يتعلمها الا وهو فى

الكلية . وأنه وهو مستجد مر بنفس الدور الذى مر بنا ، وقد قص على فيما بعد أنه عندما التحق بالمدرسة ودخل حمام السباحة فى أول مرة .. ولندعه يقص القصة بلسانه :

« وقفت فى الحمام .. وكانت المرة الأولى التى أدخل فيها فى حياتى حمام سباحة .. اذ كانت كل صلتى بالمياه هى الترعة الموجودة فى بلدنا ووجدت بعض الطلبة يسبحون فى الناحية غير الغريقة وقدد وقفوا مطمئنين يلعبون . ولم تكن لدى أقل فكرة أن حمامات السباحة مائلة القاع وأنها فى ناحية عميقة وفى الأخرى غير عميقة بل كنت أفهم انها كالترع مسطحة القاع . ولم تكن لدى أى فكرة عن السباحة ، وكان ابراهيم جزارين هو الصف ضابط المسئول عن السباحة يومذاك . ووجدت الناحية العميقة خالية .. فقلت لنفسى أنزل بها بعيدا عن الزيطة . لأرى الحكمدار أنى لست غشيما وأنى متعود على حمامات السباحة .. وعنهاوفى غفلة منه ودونا عن بقية الطلبة .. طببت فى الماء .. بمنتهى البساطة .. ويقول الواقفون يومئذ ان ابراهيم جزارين تلفت حواليه فلم يجدنى فسأل من حوله فى حيرة « الواد الفلاح اللى كان واقف هنا راح فين » فاشاروا له انى طببت فى الماء . وصاح جزارين .. يا نهار اسود الله يخرب بيته دا ما يعرفش يعوم ... ثم قفز ورائى .. وانقذنى من الغرق » .

تلك هى قصة الشاذلى حكمدار السباحة .. الذى كان يشرف على تعلمنا السباحة .. والذى لم يذكر ايامه السود فى حمام السباحة .. وكان يصر عندما يوشك على عامر أن يطلق سراحنا .. على أننا لم نتعب بعد وأننا نستهبل .

وهكذا ظل شريكى فى البأساء الأخ بدر الدين يلقى بقدميه الى التهلكة ثم يهبطون وراءه لانقاذه من الموت غرقا . ولا يكاد يخرج .. حتى يعيده الشاذلى مرة أخرى ويظل يخرج ليعود ويعود ليخرج .. حتى فضل فى النهاية أن يخرج من المدرسة كلها وأن ينجو بحياته ويفوز من الغنيمة بالاياب ويقدم استقالته .

العوامُ والسوسُ

لم تكن متاعب الكلية فى فترة المستجدين بمقصورة على حالة اليقظة ما بين طوابير ونط حواجز وملاكمة وحمام سباحة وجزاءات من طوابير زيادة الى شدة سفرية ولوم وتأنيب وبستفة وتريقة ، مما يدعونها بلغة الكلية « داخلية » . لم تكن متاعبنا مقصورة على جهد اليقظة بل كانت تتعداها أيضا الى خوف الراحة .. أو على وجه أدق خوف النوم .

ولست أقصد بخوف النوم . نوم الليل .. فقد كان وقتذاك احب الأشياء الى نفوسنا . اذ كانت فترة السعادة الوحيدة التى تمر بنا .. أعنى السعادة السلبية .. التى يبطل خلالها احساسنا بالحياة وبكل ما يملؤها من متاعب ومنغصات حرة صافية لا تشوبها شائبة متعة أو انشراح .

لست أعنى بخوف .. نوم الليل .. ولكنى أعنى نوم الضحى .. وقد يبدو قولى نوم الضحى عجبا .. وأنا الذى اصف حياتنا حينذاك بأنها عاصفة من العمل والحركة لا تهدأ ولا تنى ، ونوم الضحى هذا يحتاج الى حالة من الراحة والكسل والفراش الوثير والستائر الثقيلة والسكون المخيم والصمت المطبق والظلمة المعتمة ومن أين لنا كل هذا نحن الدائرين فى دوامة تتركنا لا نكاد نلتقط انفاسنا . ومع ذلك فقد كان أكثر ما نخشاه نوم الضحى . لسبب بسيط .. هو اننا لم نكن نحتاج من نوم الضحى أو نوم العشى الى أى من هذه المغريات التى تغرى الانسان بالنوم . بل كان يكفى جدا ان نستقر بأجسادنا على مقعد خشبى أو نتكىء على جدار حجرى . ثم نسبل أعيننا أو حتى نتركها مفتوحة لكى تسقط من تلقاء نفسها . وفى لمح البصر نكون قد رحنا فى سبات عميق .

وفى الضحى لم يكن القدر ليبخل علينا بسويعات استقرار على مقعد خشبى فى حجرات الفصول أو كما تسميها « الفرق » .. وكان المفروض وقتئذ أننا نجلس فى الفصول للدراسة .. دراسة أصول الحرب وتاريخ المعارك .. ومن الجائز جدا أن المدرسين كانوا يلقون علينا بعض المعلومات عما يعرفونه عن أمثال هذه الاشياء .. ومن الجائز أيضا أنهم كانوا يتحدثون فى أشياء لا صلة لها بالمعارك أو الحرب .. فأنا نفسى لا أدرى .. لأنى فى الواقع كنت مشغولا عن معاركهم وحروبهم .. بمعركة كبرى .. بينى وبين النوم .

ولكى لا اظلم نفسى .. ولكى لا يظلمنى القارىء ويتهمنى بالكسل والوخم .. أجد من الخير أن اعطيه صورة مفصلة وأن اشرح له جميع الظروف المحيطة .. وأن أصف له بدقة كيف كنت أدخل الفصل لأستقر على المقعد الخشبى ولأنصت الى مبادىء الحرب وتواريخ المعارك .. وبعد هذا .. أتحدى كل قارىء بمائة جنيه ، للاشىء .. أن يوجد فى مثل هذه الظروف .. ويستطيع أن يقهر .. النوم .

تبدأ المسألة بيقظة فى الخامسة .. يقظة لا ككل اليقظات .. لا تثاؤب ولا تمطى ولا هرش رأس ولا حك جلد .. ولا فتح عين ثم اغلاقها ثم فتحها ثانية .. لا شىء من هذا أبدا .. بل هبة كعاصفة مفاجئة بعد طول سكون .. عقب نفخة فى البورى للنوبة المخيفة : نوبة صحيان .. وطرقات شديدة من أومباشى « الصف » أى حكمدار العنبر وصيحة ناهرة تشتمل على « أصحى منك له » .

وبعد بضع دقائق نكون قد اصطففنا بالبيجامات والجلاليب والشباشب والطرابيش . لنندلى اليه بالقول الخالد المأثور « تمام يا فندم مستجد » وهو يعنى أننا على خير حال من الصحة والعافية وأنه ما زال بنا رمق يعاوننا على تحمل متاعب يوم جديد .

ويبدأ بعد ذلك العدو بين الفراش والدولاب والحمام والسلاحليك وعلبة الجلا وحق الورنيش وفنجان الشاى الصباحى . حتى ينتهى بنا المطاف الى أرض الطابور .

وما من شك هناك أننا نكون - قبل البدء في الطابور - قد استفدنا من الجهد للاستعداد للطابور ما يعادل إن لم يزد على جهد الطابور نفسه .. ويبدأ الطابور .. وفترة المستجدين فى الكلية تستغرق شهر اكتوبر . وحدة القيظ لم تذهب بعد . ويدق الطبل والترمبيت .. ونروح فى ساحة الطابور .. وكأننا فى سيرك .

ونخرج من الطابور .. والواحد منا كما يقول المثل « عرقه مرقه » .. لندخل على الفطار

وحديث الفطار .. أو الطعام بوجه عام .. حديث يطول .. ولست أدرى السر فى اقبالنا عليه بتلك اللهفة والنهم ... أهو الجهد الشاق الذى كنا نبذله والذى كان يتركنا فى حالة من الجوع تجعلنا نلتهم أى طعام ، أم هى حالة من الديمقراطية أصابت معداتنا وجعلتها ترحب بكل ما يلقى اليها وتركتها كما يقولون تهضم الزلط أم أن الأكل كان فعلا من نوع جيد .

قد يكون .. ولكى لا نظلم معداتنا أو نظلم الآكل .. يستحسن أن نعرض قائمة الطعام وقتذاك .

كان الطعام ينقسم من ناحية الصنف الى صنفين رئيسيين لا ثالث لهما : الأول .. الأحمر .. والثانى .. الأخضر ..

كانت لكل أنواع الخضار التى تنبتها التربة المصرية .. تدخل مطبخ الكلية بكيانها المحدود المعروف واسمها المصطلح عليه .. قلقاس . بطاطس . خبيزة . سبانخ . رجلة . ملوخية .. فلا تكاد تحل بالمطبخ وتهبط فى القزانات .. حتى تتفرع الى فرعين .. وحتى تحولها كيمياء مطبخ الكلية الى الصنفين الرئيسيين اللذين يأبى مطبخ الكلية أن يقدم غيرهما .. الأحمر والأخضر .

كان من المتعذر أو من المستحيل .. ونحن نجلس على المنضدة يتوسطها السرفيس ملىء بالخضار أن تعرف ماهيته .. أو أن تعرف أصله أو نوعه .. شىء واحد هو الذى يمكن تمييزه وهو أنه أخضر .. أو أحمر .. فإذا

كان أخضر تستطيع أن تعتبره أى نوع من أنواع الخضروات ذات الأوراق الخضر أو ذات التقلية الخضراء المصنوعة من السلق .. جائز جدا .. أن يكون خبيزة .. وجائز جدا أن يكون سبانخ .. وجائز جدا أن يكون رجلة .. فإذا كنت من غواة الملوخية .. فتستطيع أن تعتبره ملوخية .. دون أن يعترضك معترض ودون أن تخشى فى الحق لومة لائم .. وإذا كنت تكره كل هذه الاصناف ولا تحب الا القلقاس أبو خضرة .. فلتقل عنه قلقاس .. ولتقبل عليه بشهية وبالهناء والشفاء .

ويدخل تحت باب الأحمر .. كل ما يطهى بالقوطة .. ويبدأ بالقوطة نفسها . والبطاطس والكوسة والمسقعة والقلقاس أبو قوطة لا فارق قط بين أحدهما والآخر .. كلها فى قزان المطبخ سواسية كأسنان المشط تدخل بأشكالها وأسمائها ، وتخرج عصيدة حمراء تحت اسم الأحمر .. وليحيى العدل .. ولتحيى المساواة ..

أما الحلو .. يا حلو .. فكان ينقسم أيضا الى قسمين .. والظاهر أن المسئولين عن الطعام كانوا لا يحبون اللخبطة .. ولم تكن لديهم أية فكرة عن شيء اسمه الفاكهة . لأن الحلو كان محصورا وقتذاك فى صنفى الاراسيا والمشمش . يوم اراسيا .. ويوم مشمش .. وهكذا يظل الصنفان يتبادلان على مائدتنا يوما بعد يوم .

وهناك بعد هذا اصناف من الأكل تدخل كلها تحت مسمى واحد وهو القنابل اليدوية .. وهى الكفتة والكرنب المحشى .. فقد كانت دائما تصنع فى حجم قبضة اليد .. أو فى حجم القنبلة اليدوية .. وفى هذه المسألة أعذر الطباخ جدا .. فقد كان الرجل ضخما جدا يبلغ ضعف حجم الآدمى العادى .. ولا شك أنه كان عندما ينظر الى قطعة الكفتة أو قطعة المحشى أو يمسكها بيده الضخمة كان لا يشعر الا انها لا تزيد عن الكفتة أو المحشى الطبيعى الذى يأكله كل الناس .

هذه هى الاصناف الرئيسية فى الغداء والعشاء .. والتى كنا - رغم ما قلت عنها - نقبل عليها بنهم ولهفة .. والتى لم نشعر مرة واحدة من أكلها بحمو

ولا بتعب ولا بحرقان .. ولا بأى شىء من هذه السخافات التى نشكو منها هذه الايام ..

رحم الله المعدات الديمقراطية .. التى تهضم الزلط .

أما عن الفطار فقد كان ايضا ذا قسمين رئيسيين : عدس .. وفول .. يقدمان بالتبادل يوما بعد يوم . يوم عدس ويوم فول .. والفول فى حد ذاته ينقسم الى قسمين فول وسوس .. ولكنهما لم يقدما قط بالتبادل بل كان كل منهما ملازما للآخر .

أذكر أننا جلسنا مرة على المائدة ومر الأومباشى النوبتجى المسئول عن الأكل وسأل حكمدار كل مائدة عن الطعام ليبدى ملحوظاته وكان السؤال سؤال شكليا والاجابة الطبيعية الدائمة لم تكن تزيد عن « تمام يا أفندم » . ولكن هذه المرة . والظاهر أن السوس كان متوفر الكمية وأن صحته كانت جيدة الى الحد الذى بدأ متكافئا مع الفول . بدا لى أن أبدى رأيى فى مسألة خلط الفول بالسوس فهمست راجيا :

- عايزين الفول لوحده والسوس لوحده .

ونظر الى الأومباشى نظرة صارمة أدركت منها مدى الخطيئة التى تورطت فيها .. وتأكدت أن الصحبة بين الفول والسوس فى أطباق الكلية لا يمكن فصم عراها .. وخشيت أن يكون للسوس معزة عند الكلية وأن تؤخذ ملاحظتى تلك على أنها إهانة للسوس وبالتالي لادارة الكلية .. وأن تكون لادارة الكلية حكمة فى تطعيم الفول بالسوس وأن يكون به نوع من الفيتامينات العسكرية الضرورية لنا . ولم يكن هناك يد بعد ذلك من اصلاح خطئى ولا سيما أن الأومباشى كان لم يزل مسلطا على نظرته القارصة . وأسرعت أقول متمتما فى اعتذار :

- أصل فيه ناس ما يحبوش الفول ويحبوا ياكلوا السوس لوحده .

ورغم ذلك .. ورغم ما بالفول من السوس .. أو على الاصح رغم ما بالسوس من فول .. كانت المعدة الطيبة ترحب بكل شىء وتقبل على كل

شىء .. وكنا نعود بها من الطابور خاوية خالية .. فنقذف اليها بكل ما تيسر من عدس فت فيه العيش أو بطبق الفول المدمس ثم نقذف وراءها بقبضة من الجبن ثم نغطى كل هذا بشقفة حلاوة طحينية ونخرج من الميس (المطعم) ونحن أشبه بالمحقونين بالبنج .. ولم أشبه ؟ !.. وكان تأثير العدس والحلاوة .. تأثير مخدر لا يقل عن أقوى حقن البنج .

وبعد هذا .. بعد اليقظة المبكرة .. والجهد الشاق في الطابور وقبل الطابور . وبعد أكلة البنج إياه .. ندخل الفصول لنستقر - بأجسادنا المرهقة ومعداتنا الممتلئة على مقاعد التخت .. وننصت الى ماذا ؟ .. الى مبادىء الحرب .. أو معركة واترلو .. ؟.

ولا نكاد نستقر على مقاعدنا .. ولا يكاد المدرس يفتح فاه .. حتى تبدأ المعركة .. معركة واترلو من فم المدرس .. ومعركة النوم فى اعيننا .

وأجلس على المقعد رافعا رأسى مبرزا صدرى .. وبى ما يسمونه « حلاوة الروح » الباقية من أثر الطابور .. ثم أحس نعمة الاستقرار وراحة الجسد المنهك يهدأ أخيرا فوق المقعد . وأترك عضلاتى المشدودة تسترخى رويدا رويدا .. ثم أرقب المدرس - من ناحية الشكل طبعا - لأنى اعتقد أن مراقبته من ناحية الموضوع أمر لا يستدعى استعجالا .. ويزداد بى أحساس الراحة وازداد استرخاء .. والمدرس منطلق فى الحديث .. ثم احس بتثاقل جفنى .. ولا أكاد أترك نفسى تستسلم لموجة الراحة التى غمرتها حتى أتنبه الى مدى خطورة ما أوشك أن أقع فيه .. وأدرك أنى على وشك أن أرتكب جريمة النوم فى الحصة .. وهى لا شك، جريمة كبرى من رجل عسكرى .. يجب أن يظل طوال الحصة مصلوب الجسد بارز الصدر مرفوع الرأس .

وانفض النوم من عينى وأهز رأسى وأحاول أن أركز نظرى فى شفتى المدرس وذهنى فى الكلمات المتطايرة من شفتيه .. وأصيب منها رشاشا عن دوق ولنجتون وكاتريرا وأشياء من هذا القبيل لا أجد لها معنى ولا أفهم بينها ارتباطا ثم أحس نوبة الراحة تعاودنى وبالمدرس يطول .. وبشفتيه تنفرجان ثم إذا بى أجده قد أضحى شبيها بخادم كان لدينا يسمى أحمد المهدى وأتوهمه

يقبل على فى بشاشة وترحاب ثم فجأة أحس بكوع فى جانبى فأرفع رأسى المنثنى فوق صدرى وأحملق بعينى بشدة حتى أرى كل من حولى اننى فى اشد حالات اليقظة .

وأسمع جارى يهمس بى « الراجل بيبص لك » .

ومرة أخرى تبدأ المعركة .. وأضع نفسى من باب الاحتراس خلف ساتر من ظهر أحد الجالسين أمامى وأظل أتحرك يمنة ويسرة أضعه فى الخط الموصل بينى وبين المدرس .. ويهجم النوم .. ويتحرك الساتر .. فاذا بى صريع النوم .. وفى العراء .. بلا ساتر .. واذا بالطابور الزيادة يرف على رأسى من فم المدرس .. كما يقول أبناء البلد « زى الحلاوة » .

وهكذا كنا نقضى نصف الحصة بين صرعى واترلو ، والنصف الآخر .. بين صرعى العدس والحلاوة الطحينية .

كانت المعركة عامة بيننا وبين النوم .. وكان النوم يخرج منها فى كل حصة منتصرا .. تاركا خلفه ما لا يقل عن عشرة ضحايا .. من ضحايا الطابور الزيادة .. الذى أوقعه بهم المدرس لنومهم فى الدرس .

اثنان من كل الدفعة هما اللذان أفلتا من الجزاء : أولهما .. جمال صبرى .. الذى لم يستطع النوم أن يصرعه .. لانه كان مصابا بالأرق .. لوقوعه فى الحب .

والثانى .. وهو .. أحمد فؤاد .. كان ينجو من الجزاء .. لا لأن النوم لم يستطع صرعه – فقد كان دائم النوم .. رغم أنه أول الدفعة .. ورغم أنه كان دائم النوم الحصصى .. أو على الأصح .. كان فنانا .

كان أحمد يبدأ النوم فى أول الحصة .. فلا يستيقظ الا فى آخرها .. كان ينام بعد « ثابت » الأولى التى يقولها حكمدار الفرقة عند دخول المدرس .. وكان لا يستيقظ الا بعد « ثابت » الثانية التى يشيع بها حكمدار الفرقة المدرس عند خروجه .. لا أنكر – بلا تشنيع – ان أحمد سهر حصة واحدة .. وكان يجلس فى الصف الأول .. بلا ساتر يستره ومع ذلك لم يأخذ جزاء واحدا .

عجيبة .! !

أجل .. هى عجيبة فعلا .. على اى انسان .. ولكن ليس على أحمد .. كان أحمد يجلس على التختة وأمامه ورق ومذكرات مطبوعة أو ورق أبيض وكان يتكىء بمرفقه على الدرج ويسند جبينه على كفه اليسرى مفتوحة ومائلة على وجهه وحاجبيه وعينيه ثم يمسك القلم بيمينه ويضع سنه على الورق كأنه يكتب .

ويجلس أحمد طول الحصة على هذا الوضع والناظر اليه يجزم بأنه منهمك فى أخذ مذكرات أو كتابة ملخصات لما يقوله المدرس .. بينما يكون أحمد مستغرقا فى نوم العوافى .

ويعلم الله أنى حاولت أن أقلده وأنى أمسكت القلم وأسندت رأسى بالطريقة التى يفعلها .. ولكنى لم أستغرق فى النوم حتى أفلت القلم من يدى وانزلق على الورق .. ثم سقطت رأسى من كفى .. وكانت فضيحة .. علمت بعدها أن « ولا كل من ركب الحصان خيال » .

وهكذا ظللنا فى مصارعة النوم .. ونحن نسترقه فى الحصص خلسة .. حتى منّ الله علينا بفرصة كبرى .. أصبحنا نتعاطى النوم فيها .. علنا .. بلا خوف ولا خشية .. فى وضح النهار .. وفى الحصة .. وأمام المدرس .

كيف ؟ !

مسألة بسيطة .. لقد بدأ مدرس التاريخ يشرح المعارك بالأفلام السينمائية وبالفانوس السحرى . ومعنى الشرح بالسينما والفانوس السحرى .. أن الحصة تمر ونحن نرقع فى بحبوحة من الظلام .. والظلام كما يقولون سترة .. وتحت جنحه يرتكب الانسان كل ما لا يجرؤ على ارتكابه فى النور ووجدنا الفرصة العجيبة قد سنحت .. وجلسنا نتحفز .. ولم يكد النور يطفأ والفيلم يبدأ .. « بالتقهقر من مونز » حتى سقطنا جميعا .. صرعى النوم .

وهكذا استمرت الأفلام تعرض فى الحصص .. ونحن متمتعون بالنوم الهادىء الذى لا يقطعه خوف ولا يقلقه خشية .. نغمض أعيننا مع انطفاء

النور .. ونفتحها مع اضاءته .. والمتقهقرون من مونز مستمرون فى تقهقرهم .

وحسب قانون القدر .. الذى لا يهب الانسان نعمة الا استردها نقمة .. فوجئنا ذات حصة بما هتك سترنا وكشف أمرنا :

فى احدى الحصص .. والعرض على أشده .. والمتقهقرون من مونز ممعنون فى تقهقرهم .. والمتفرجون على المتقهقرين من مونز ممعنون فى شخيرهم .. اذا بالفيلم يقطع .. واذا بالنور يضاء .. واذا بالمدرس المنهمك فى الشرح يكتشف أنه يشرح لثلاثين نياما . وهكذا ضبطنا .. جميعا بلا استثناء .. حتى المصابين بالأرق ونحن متلبسون بجريمة النوم العلنى مع سبق الاصرار .. ووجد المدرس أن من العبث أن يوقع أى جزاء فقد كانت المسألة فى نظره أفجع وأروع من أن يحسمها هو .. فانطلق من الحصة يدعو كبير المعلمين حتى يتولى هو بنفسه أمر العصاة الجناة .

وأقبل كبير المعلمين .. وكنا قد استيقظنا . وجلسنا نرتجف من الذعر . ونظر الينا الرجل ثم هز رأسه هزات مختنقة وجلس فى تؤدة وأمر المدرس باستمرار العرض حتى يكشف هو بنفسه أمر النيام .

وأطفىء النور .. وكنت فى حالة من الذعر تجعلنى قطعا لا استطيع النوم حتى لو أردته . لقد كنت أخاف الباشجاويش التعلمجى فما بالكم بكبير المعلمين نفسه .

وجلست فى الظلمة وأنا أحملق لأول مرة فى المتقهقرين من مونز وأخذت أنقل البصر فيمن حولى داعيا الله أن يبعث فيهم اليقظة وأن يبعد عنهم النوم .

ورويدا رويدا تبددت من نفسى حالة الذعر وأيقنت أننا بلا شك نستطيع أن نجتاز التجربة بنجاح . وأننا سنثبت للرجل أن فى السويداء يقظى .

مخلوق واحد هو الذى كنت اخشى عليه .. وذلك هو أحمد فؤاد أخصائى النوم فى الحصص .. انه قطعا لن يتحمل اليقظة .. ويداهمه النوم فيستسلم له

كما هى عادته .. ولن يفيده فنه فى التنكر والتستر إذ ليس هناك ما يستدعى قط أن يمسك قلما ولا أن يدعى الكتابة وهو فى الظلام .

مسكين أحمد .. يارب أبعد عنه النوم .. يارب صحيه .. ينتابنى قبيل النوم .. فانتفضت فى مكانى .. وظللت أفكر فى كل الأمور المزعجة التى تبعثنى على الاستيقاظ .. وبين آونة وأخرى أدعو .. يارب أيقظ أحمد .. يارب أبعد عنا النوم .

وأخيرا فتح النور .. وكان أول من صوبت اليه نظرى هو أحمد فؤاد .. الحمد لله .. لقد كان فى تمام اليقظة .. برافو احمد .. وظللت اتنقل ببصرى بين الاخوان فإذا كلهم يقظون .

فرد واحد هو الذى لم يحتمل التجربة وصرعه النوم فاستغرق فى سبات عميق وهو .. كبير المعلمين .

حارديكا

عندما أذكر بداية عهدنا بركوب الخيل فى الكلية الحربية أجدنى شديد الشبه بصاحب السلطان رغم أنى كنت بلا حول ولا طول ولا قوة ولا سلطان ..

يبدأ الأمر بنا بعد أن استلمنا بنطلونات الركوب ذات السيقان المنتفخة والمظهر الانيق ، وقد ارتديناها حتى يضبطها علينا الترزى أو بتعبير العسكرية « يقيفها » علينا . ووقفنا نتطلع الى المرآة المستطيلة الملصقة بحائط عنبر النوم . وقد داخلنا احساس لأول مرة فى الكلية – بعد طول تواضع وبهدلة – بأننا أصبحنا من ذوى الشأن وأن هذه هى أول تباشير الأرستقراطية .

والواقع أن منظر البنطلون كان وجيها فعلا لضيقه عند الخصر واتساعه فوق الركبتين والقالشين الملتف بأناقة وانتظام حول الساق « لفة مقلوبة غير لفة المشاة » وقد أعطاها امتلاء عند السمانة وضيقا عند الركبة . كل هذا خلع علينا بعض الوجاهة التى افتقدناها فى البنطلون الترواكار الهابط الى ما بعد الركبة ، وجزمة الألعاب والشراب الصوف البنى والسيقان العجفاء العارية .. وغيره من مسببات البهدلة وقلة القيمة ، واحسست وأنا أنظر الى المرآة باسترداد بعض الثقة الضائعة فى مظهرى .. وقلت لنفسى .. وما بقى .. أعظم .

وما أظننا كنا مبالغين فى تلك الفخامة التى خلعناها على أنفسنا ونحن نتصور أنفسنا ركوبا على جياد .. أو باختصار .. فرسانا .. فالفروسية قرينة

الفخامة والارستقراطية والوجاهة والأبهة .. وما أظن هناك أشد مهابة من راكب ظهر الحصان اللهم الا صاحب ابن المقفع راكب ظهر الاسد .. وهو ما لم نكن نتطلع اليه أبدا .. لأن ركوب الأسود لم يكن وقتذاك ضمن برنامج الكلية .. ولله الحمد .

وما أظن صورة الفارس تقرن الا بكل ما هو جميل جليل .. فاذا وقف الطالب منا وقتذاك وقد نظر الى نفسه فى المرآة وهو يرتدى بنطلون الركوب لأول مرة في حياته .. ووثق أن الشيء المحتم بعد ارتدائه بنطلون الركوب .. هو أن يركب فعلا .. ويصبح بذلك فارسا .. فهو معذور جدا اذا اندفع به الذهن .. فصور له نفسه عنترة فى حومة الوغى جائل صائل مكر مفر .. هتاف بقول الشاعر :

حصانى كان طلاع المنايا فخاض غمارها وشرى وباعا

أو صور له نفسه من رعاة البقر الأمريكان يندفع بالحبل ذى الخية ودستة المسدسات في منطقته .. أو من فرسان الهنود ينطلق صارخا مولولا مثيرا الفزع والهول .. أو بالقليل جدا - مع التواضع الشديد - فارس مصرى يتهادى بحصانه بجوار منزل حبيبته .. المطلة من الشباك .. ليختطفها وينطلق بها .. الى جنينة النزهة .. أو الاسماك .

ولقد كنت أنا من النوع المتواضع الأخير .. فلم تكد صورتى تلوح لى في المرآة ببنطلون الركوب .. ولم أكد اتصور نفسى قفزت على الحصان وأصبحت فارسا .. حتى وجدتنى أطير .. الى شارع روض الفرج .. فاستقر أسفل شباك ماريكا .. ابنة صاحب الفرن الأفرنجى .. ولست أريد من المستمعين سخرية .. حقيقة ان اسمها ماريكا .. وحقيقة ان أباها صاحب فرن أفرنجى .. وحقيقة أننا لم نرها الا تلعب الحجلة أو تقضم السميط .. ولكن كل هذا لا يمنع من أن تكون قطعة فنية رائعة فى الثالثة عشرة .. ذهبية الشعر ، خوخية اللون والملمس .. والمذاق .. وكان التنافس عليها بين صبية روض الفرج وشبرا الثانوية على أشده .. ورغم أنها منحتنى بضع ابتسامات ورغم صداقتى لأبيها نتيجة مواظبتى على شراء البقسماط والقراقيش من مخبزه فلم

أكن أحس أني في حومة غرامها بالفارس المجلى ..

وكانت دوامة الكلية وشقاؤها وجهدها .. قد انستني حتى نفسي .. ومن اكون وماذا أفعل .. وبالتالي انستني ماضي .. بما فيه ماريكا .. وغير ماريكا .. ولم يكن ما أنا فيه من بهدلة وقلة قيمة ليسمح لي بالتفكير في أي نوع من المغامرات والغراميات .. ولكن ذلك لا يمنع من أن المشاعر القديمة كانت كائنة كامنة .. ولذلك لم أكن أنظر الى منظري ببنطلون الركوب .. وأتخيل نفسي فارسا حتى وجدت أن خير ما أفعل .. بدل المعامع .. والمواقع .. ومغامرات رعاة البقر وولولة الهنود .. أن أكفي خيري شري .. وأن أتجه رأسا الى الآنسة ماريكا .. المطلة من الشباك .

ومضت بضعة أيام قبل أن يحل موعد طابور الركوب .. ولم يكن لنا قبل ذلك حديث سواه .. أو تفكير - ان كانت هناك فرصة للتفكير - في غيره .. ولم يخل الأمر من أن يكون بيننا بعض أصحاب السوابق في الركوب .. سواء في عزبة آبائهم .. وفي الهرم .. أو في رحلات متشابهة .. فصالوا بيننا في الحديث عن الركوب وجالوا .. وحدثونا عن متعة الركوب وانطلقوا يصفون لنا بعض مغامراتهم فزادونا شوقا وملأونا رغبة .

وأخيرا .. حل موعد الطابور ، وهبطنا من العنابر وسرنا لأول مرة من دخولنا الدوامة .. في طرب ونشوة .. وبنطلونات الركوب ذات القماش السميك المضلع ملتصقة بأجسادنا ، مكوية نظيفة جديدة .. وأحزمة الوسط « القوايش » العريضة البيضاء تشد البنطلونات الى خصورها .. ونحن نشف ونرف .. أو كما يقول المثل - الذى لا أفهم معناه حتى لا يسألني عنه أحد - : « على سنجة عشرة » .

لم يكن ينقصنا سوى شيئين حتى تتم بهما القيافة .. ويكمل بهما منظر الفارس .. أولهما المهماز .. وثانيهما العصا .. وهما ما كنا نبصر بهما الطلبة القدامى .. وبما أننا لم نزل بعد حديثي عهد الفروسية فقد حرم علينا المهماز والعصا اللذان لا يصرفان الا للأكفاء القديرين .. حتى لا يساء استعمالهما .

ما علينا .. بناقص المهماز والعصا .. .. عن نفسي أنا .. وفي قرارة

ذهنى .. ما كنت اظن ماريكا - وهى محور المسألة كلها - تهتم كثيرا بمسألة المهماز والعصا ، بل لا أظن أنها سمعت عنهما من قبل ولا عرفت أنهما من لوازم الفارس الكفء .

واصطففنا فى ارض الطابور . وكانت الساعة السادسة والنصف وأجرى الضابط النوبتجى التفتيش علينا ثم أمر حكمدارنا بأن يحرك الطابور الى السوارى وأن يحافظ على النظام والضبط والربط .

وكان حكمدار فرقتنا الأصلى هو على حلمى .. وقد كان يبدو رجلا وقورا ، متزنا متئدا وهو باق فى السنة الأولى من العام السابق . وكان الذى يليه فى الأقدمية هو عبد العزيز الجمل وهو الآخر باق من العام السابق ولكنه وصاحبه على طرفى نقيض .. كان عبد العزيز عصبيا متسرعا سريع الغضب ، وكنت أعرف أن لديه فى دولاب ملابسه - دونا عن بقية الطلبة - بدلة ملكى لا يكاد أحد من الصف ضباط يثيره أو يغضبه حتى يعدو الى الدولاب فيرتديها ويطلب الاستقالة . فلا نزال به نهدئه حتى يعدل عنها .

وكنا كثيرا ما نتسلى فى الفترات بين الحصص أو فى حصص المذاكرة بتهييج الجمل واثارة حنقه ولكى يثار منا كان يستحلف على حلمى بالخروج من الفصل حتى ترسى عليه الحكمدارية ثم يبدأ فى الامارة علينا والتنكيل بنا .

وفى هذا اليوم كان على حلمى متغيبا ، وكان عبد العزيز متوليا حكمدارية الطابور .. وبدا لنا من حركاته واضطرابه أنها المرة الأولى التى يتولى حكمدارية طابور متحرك ..وبدأ ينادى علينا بصوته الرفيع « أربعات تشكيل .. يمين »

وزادت بنا النشوة .. والجمل يقودنا .. وهو يحاول السيطرة على أعصابه واخفاء اضطرابه .. ونحن نحاول اخفاء ضحكنا عليه .. فقد كنا ما زلنا نسير فى رحاب الكلية وكنا نخشى ان يبصرنا ضابط أو صف ضابط فيوقع علينا الجزاء .

وجاوزنا باب الكلية الخلفى المؤدى الى السوارى .. ونحن نحاول

التمالك .. حتى بدأنا نعبر باب السجن الحربى الكائن خلف الكلية .. واذا بنا نفاجأ بالقرقول يخرج لنا تحت السلاح باعتبارنا طابورا متجمعا . وضرب الجمل لخمة .. وهو يرى حارس السجن يصرخ بأعلى صوته : « قرقول سلاح » .. ويبصر القرقول يصطف لتحيتنا ويؤدى لنا سلام سلاح .

ولم يكن قطعا ما يدعو لهذه اللخمة .. فقد كان على الجمل أن ينادى علينا ببساطة : لليمين أنظر .. ردا لتحية القرقول .. ولكن اضطرابه الأصلى من مجرد توليه حكمدارية طابور متحرك لأول مرة .. ومفاجأته بصيحة الحارس وخروج القرقول تركته مذهولا لا يعرف ماذا يفعل .. وأخذنا نهمس به أن يرد التحية .. فلما فتح الله عليه .. نادى « للشمال أنظر » أى ننظر فى الاتجاه المضاد للقرقول .. أى نشيح بوجهنا عنه .. وصحنا به أن يعدل ندائه .. ولكن كانت قد أصابته نوبة « للشمال انظر » فلم يعدل عنها الا ونحن قد جاوزنا القرقول .

وقد تكون المسألة زلة لسان لا تدعو لأى ضحك . ولكن لست أدرى أى عاصفة من الضحك تملكتنا وقتذاك ، ولا سيما بعد أن ابتعدنا عن السجن وخرجنا الى العراء ولم يعد هناك لأحد أية رقابة علينا ..

وهكذا أخذنا حريتنا ، حتى اقتربنا أخيرا من خانات السوارى .. فانتظمنا وأخذنا نستعد لأعمال الفروسية الباهرة التى نوشك أن نأتى بها .

ونظرنا حولنا .. فاذا بالخيل الموجودة كلها .. لا تعدو واحدا .. يانهار أسود .. حصان واحد !! وأحسسنا بفجيعة كبرى .. ماذا ترانا سنفعل بهذا الحصان الفرد الأحد .. نركبه جميعا مرة واحدة .. أم نتبادل عليه الواحد بعد الآخر .. آخذين لكل واحد لفة .. كما نفعل بالبسكليت .

واصطففنا أمام الحصان الوحيد وبأنفسنا لهفة على ما نوشك أن يفعل بنا ونفعل به ، وبعد أن حيا حكمدارنا ضابط السوارى وأنبأناه أن الفرقة تمام أمره بأن نقف « صفا » - وهى وقفة أكثر راحة - ثم بدأ يفسر لنا ما خفى من أمره .. وأمر الحصان الوحيد .

وأحسسنا بخيبة أمل كبرى عندما اتضح لنا أن جلائل أعمال الفروسية التى كنا نمنى النفس بها قد تضاءلت وانكمشت و « صفصفت » على محاضرة فى اجزاء الحصان .

أى والله .. لقد أخذ التعلمجى الصف ضابط .. ينبئنا لا فض فوه .. بأن هذا هو ذيل الحصان .. وأن هذه ساق الحصان .. وأن تلك عنق الحصان .. وأذن الحصان .. ورأس الحصان .. وأخيرا وبعد كل هذا أنبأنا بما لم نحط به علما ، ولوح بيديه حول الحصان .. قائلا : « وده كله اسمه الحصان » .

وانتهى الطابور أخيرا .. وعدنا الى الكلية - كما يقولون - بخيبة رجانا .. بعد أن فسر المعلم الماء بعد الجهد بالماء .. وبعد أن علمنا أن الحصان الذى رأيناه .. هو حصان .. وليس كما قد يخطر ببالنا أسدا .. أو تمساحا .. أو وطواطا .

وصبرنا وأخلق بذى الصبر أن يرى فرجا .. وأتانا الفرج بعد بضعة أيام فى الطابور الثانى .. وتحرك موكبنا للمرة الثانية فى الصباح المبكر الى خانات السوارى .. وكان الوقت قبل الشتاء .. والشمس فى مشرقها لم تتجاوز الأفق .. وموجات الضباب تتوافد علينا متثاقلة تارة ، متطايرة أخرى .

ونادى الحكمدار بنا « قف » فتقارعت الكعوب فى ضربة واحدة كأنها وقفة رجل واحد ، ولاحت الخيل في الأفق تتهادى كالقافلة يركب عساكر الفرسان بعضها ويسحبون البعض الآخر ، حتى وقفت على مقربة منا .

وتفرقنا من الطابور وأمرنا بأن يتسلم كل منا حصانا .. وقسمنا الى جماعات ، كل جماعة فى خانة .. ولكل خانة معلم صف ضابط .. ويشرف على الخانات كلها .. اليوزباشى الركبدار .. أو معلم فن الركوب .

ووقفنا بجانب الحصان .. ومر الوقت بنا ثقيلا .. والتعلمجى يعلمنا كيف نقف بجانب الحصان .. وكيف نقف أمام الحصان .. ثم .. كيف نركب الحصان وكيف ننزل عن الحصان .. وأخيرا كيف يكون « قيام العسكرى السوارى الراكب » .

فقط .. شيء واحد .. أريد أن أفعله .. وهو أن أعدو بالحصان .. أن أنطلق .. أن أطير ..

ويح التعلمجى المكسال .. ما له يصر على أن نتهادى تهادى النعاج والحمير .. نحن نركب خيلا .. جيادا .. والجياد لا بد أن تنطلق ..

ونظر أحدنا الى الضابط فإذا به قد تباعد عنا قليلا الى إحدى الخانات الأخرى .. وانتهزنا فرصة .. وهتف بالتعلمجى راجيا .. « عيزين نجرى شوية يا أومباشى » .

ولم يكذب المعلم له رجاء .. ووجدته ينادى بصوته الجهورى : « الغار » ولم أكن أعرف ما معنى الغار .. ولا ماذا قصد بكلمته .. ولكن الخيل كانت أعلم بها منا .. إذ لم تكد الكلمة تنطلق من شفتيه .. حتى وجدنا الخيل تنطلق بنا خببا .. وإذا بنا نؤخذ على غرة .. فنتأرجح ونهتز ونتمايل يمنة ويسرة .. ولا نكاد نحفظ توازننا .. فنطبق بأيدينا على مقدمة السرج .. وإذا بالتعلمجى يصيح بنا ناهرا .. كأننا قد اتينا أمرا ادا .. وفعلا نكرا .. « سيب يا فندى القربوص منك له » .

وتركنا القربوص .. وأخذ .. وهو يكرر .. قيام العسكرى السوارى الراكب .. ونحن فى واد .. والعسكرى السوارى فى واد .

وهكذا فى غمضة عين .. وجدت نفسى كصاحب السلطان .. وراكب ظهر الاسد .. بل شر منهما كثيرا .. فقد كنت .. هيابا لمركبى .. دون أن يكون لى – ما أظن – أى هيبة فى عين ناظرى .

ومن أين لى الهيبة والطربوش فقد زاويته التى استقر عليها وانزلق على مؤخر الرأس واستقر على الأذنين ، والجسد ، قد زلزلت الأرض تحته زلزالها ولم يعد له قرار فهو أشبه بالمستقر على ياى لا يكاد يهبط عليه حتى يرفعه .

وأخيرا لمحنا اليوزباشى الركبدار ، ورأى الزلزال الذى اثاره التعلمجى أسفلنا هو وأصحابه الخيل .. بمسألة الغار .. والظاهر أنه قد رأى – والحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه – أن تلك منة لا نستحقها بعد .. فصاح

بالتعلمجى ناهرا « معتادا » .. وكرر المعلم كلمته .. آمرا – الخيل طبعا (لأننا فى الواقع كنا تماما كصاحب السلطان لا نملك من أمرنا شيئا » بأن تسير بالخطوة المعتادة .. ورضخت الخيل للنداء وسارت الهوينا .. وانتهى الزلزال وانتهى الطابور .

وكانت التجربة قصيرة .. تماما كالزلزال القصّير الذى لا يخلف وراءه دمارا ولا خرابا .. ونزلنا من فوق ظهور الخيل .. ولسان حالنا يقول :

أنل قدمى ظهر الأرض انى   رأيت الأرض أثبت منك ظهرا

وعندما استقر بنا الحال على الأرض وعاودنا الاطمئنان .. واحسسنا بالاستقــرار .. وتــحسس كل منــا جسده فوجــده سليمــا .. بدأ الغرور يتسلل الى رؤوسنا .. وعادت أحلام الفروسية تداعب نفوسنا .. وأخذنا خلال العودة الى الكلية نتندر بما فعلناه فى الطابور ..

وحل موعد الطابور الثالث .. وذهبنا ونفوسنا تتأرجح بين الرغبة فى الفروسية والقلق من مسألة الغار ، ولكنه كان قلقا خفيفا ، فقد كانت التجربة كما قلت قصيرة .

ولم يضيع التعلمجى وقتا فى « أمام الحصان » و « جنب الحصان » .

وسرعان ما أمرنا بالركوب .. واستقر كل منا على ظهر حصان .. وسرنا الهوينا وهو يذكرنا بقيام العسكرى السوارى الراكب .. وطبقنا كلامه وأبرزنا الصدور ورفعنا الرؤوس .

واندفعت الخيل تتوثب وتهتز .. ونسينا من جانبنا كل ما وعيناه من قيام العسكرى السوارى الراكب .. ولم نعد نذكر الا محاولة الاستقرار على ظهر هذا الزلزال المتحرك ..

ولم تكن الخيل كلها سواسية .. ولم يكن مسيرها « الغار » متشابها بل كان هناك على حد تعبيرنا خيل ذات « غار ناشف » و « غار طرى » أى خيل شديدة الرجرجة ترفع راكبها الى السماء وتهبط به الى اسفل سافلين ، وخيل ناعمة السير هادئة الرجرجة خفيفة النط .

وكان الجواد غير الكريم الذى تشرفت بامتطائه من النوع الأول وكنت فوقه أشبه « بالبويو »

ولم تكن التجربة هذه المرة بالسهولة السابقة ، بل كانت أطول عمرا وأكبر أثرا .. وهبطنا من فوق ظهور الخيل .. وقد فقدنا كل أثر من آثار الهيبة .. وقد اختلط عرقنا بالتراب الذى أثارته سنابك الخيل . وكبست فى رؤسنا الطرابيش الذى أحال التراب حمرتها الى بياض .. ووقفنا على أقدام كليلة متعبة .. ولم تجسر أحلام الفروسية أن تقترب من أذهاننا .. بل عدنا الى المدرسة .. وبنا الكثير من التعب والأعباء .

واستمرت الطوابير على هذا المنوال .. وزادت علينا مسألة جديدة .. وهى رفع الركاب .. وهو الحديد الذى نضع فيه أقدامنا فيهبنا بعض القدرة على الثبات ويمنحنا بعض التوازن والاستقرار .

كان لا يكاد الطابور يبدأ حتى ينادى المعلم نداءه المروع .. « خانه صفا .. شيل الركاب .. الغار .. » .

وننفذ نحن الجزء الأول من النداء وتنفذ الخيل الجزء الثانى .. وتبدأ المعركة بيننا وبين الاستقرار ، ونظل ندور ونلف كأننا فى ساقية .. حتى نضحى فى حالة .. يصبح بعدها السقوط .. غاية المنى .. فهى على الأقل سقطة .. بعدها الراحة .. ولقد حاولها أحدنا فعلا . فغافل التعلمجى وقذف بنفسه من فوق الحصان وانتظر أن يعدو الحصان هاربا .. ويمر الطابور وهو واقف على قدميه .. ولكن الحصان الوقح لم يهرب ولم يفر ، بل ظل واقفا وقفة الوفاء والاخلاص لراكبه .. وراكبه يدفعه عنه راجيا « اجرى الله لا يسيئك .. فارقنى ياسيدنا » حتى لمحه التعلمجى فصاح به « اركب » .

وأوقعنى الحظ مرة بعد أخرى فى نفس الجواد غير الكريم ذى الغار الناشف ، وظللت أهتز فوقه وأنا رافع ركابى المرة بعد المرة حتى جرحت ركبتى .

وازداد الجرح مرة بعد بعد مرة .. وأنا لا أجرؤ على الذهاب الى المستشفى فقد كان تقديم العيادة فى نظرنا جرما لا يقدم عليه الا الكسالى

والبلطجية . حتى أضحى الجرح لا يمكن السكوت عليه ..

وذهبت الى المستشفى ووقفت فى طابور الطلبة المنتظرين العرض على الطبيب ، وحل دورى ووقفت أمام الطبيب المنهمك فى الكتابة فى ارانيك العيادة .. ودون أن يرفع ببصره سأل :

- ها .. وأنت ؟ .. عندك ايه .

- ركبتى .

- مالها ؟ .

- متعورة .

- من ايه ؟ .

- من الركوب .

ودون أن ينظر الى ايضا التفت الى التومرجى الواقف بجواره وقال ببساطة :

- جبيرة .. اللى بعده .

ولم أغادر مكانى ولم أترك « اللى بعدى » يتقدم اليه .. ويرفع الطبيب بصره الى وجهى لأول مرة متسائلا :

- ايه .. فيه حاجة .

وتلعثمت وقلت أحاول أن أشرح له المسألة .. فقد اعتبرت أن وضع الجبيرة على الجرح سيؤلمنى أشد الألم .. والمسألة بعد كل هذا لا تحتاج الى جبيرة .

قلت متلعثما :

- بس ركبتى ما تستحملش الجبيرة .

وقبل أن أتم حديثى نظر الدكتور الى التومرجى وقال بنفس البساطة :

- طيب حطها له فى ركبته الثانية .

وقبل أن أنبس ببنت شفة جذبنى التومرجى من أمامه مجيبا « حاضر

يا أفندم » .. وهكذا استلقيت فى فراش المستشفى وبركبتى السليمة جبيرة .. وركبتى المجروحة كما هى ..

ورفعت بصرى الى سقف المستشفى .. وعاودتنى احلام الفروسية وتذكرت ماريكا .. وهى تحجل وتقضم السميط .. فأغمضت عينى فى يأس واستبلام .

غراب على شجرة

من النكت التي تروى عن الحرب الماضية أن أحد العساكر الانجليز كان يترنح مخمورا ذات ليلة في إحدى حوارى القاهرة فالتقى برجل ضرير يتلمس طريقه متوكئا على عصاه فصاح به في صوته المخمور بتلك الجملة الشهيرة التى كانت لا تفتأ تتناقلها السنة الجنود وقتذاك « شفتى بنت » . وانزعج الضرير من صيحة العسكرى ، وما لبث أن دفعه جانبا وهو يجيبه متبرما « يا أخى أبعد عنى .. أنا شايف السكة .. لما حا شفلك بنت » .

ويذكرنى قول الضرير للعسكرى بقولى ذات يوم لمحمد محمود عبد العزيز وقد خرجنا فى طابور الطبوغرافيا وامتطينا الدراجات الخضراء وسرنا أزواجا نخترق شوارع كوبرى القبة وقد سار هو بجوارى وهمس الي وهو يسترق النظر الى أعلى « شايف البت دى .. هايلة » .

ولم أكن زاهدا ولا قصير النظر ولا ضريرا .. وكان الأمر الطبيعى الواجب حدوثه ... هو أن أرفع بصرى بسرعة وبحركة لا ارادية لأمتع البصر بنظرة خاطفة من البنت الهائلة التى لفتت نظر صاحبى . ولا سيما أن قائد الطابور ومدرس الطبوغرافيا اليوزباشى حافظ موافى كان « نافشا » كالأسد أمام الطابور كأنه يقود اقتحاما بالفرسان غير ملق الينا كثير من التفات ونحن نتهادى فى المؤخرة .

كانت كل الظروف توجب على أن اختطف من البنت الهائلة نظرة ولكنى مع ذلك . لم أزد على أن اقول لصاحبى ما قال الضرير للعسكرى الانجليزى

« يا أخى ابعد عنى .. أنا شايف السكة .. لما حا شوف البنت » .

ويبدو أن الأمر يحتاج الى شىء من الشرح والتفصيل .

سبق أن قلت أن والدتي كانت تجد فى ثلاثة ارباع الاعمال التى يباشرها الصبية .. ونباشرها نحن - أنا وأخوتي - بالتبعية .. خطورة على حياتنا .. وكانت لا تكاد تطمئن على حياتنا الا ونحن جلوس امام المكتب أو نيام فى الفراش .

كان لعب الكرة والتجديف والسباحة وعبور الطريق وركوب الترام .. و .. من المهالك والأخطار التى يجب علينا تجنبها . بل أنى لأذكر ونحن نقطن فى جنينة ناميش فى أحد المنازل المطلة على شارع الخليج وسكة حديد حلوان أن فوجئنا بها - أى والدتي - تدخل علينا مندفعة من الشرفة المطلة على الشارع وهى تصرخ وتولول كأن كارثة قد حلت ، وصحنا بها نستفسرها فى ذعر عن الخبر فأنبأتنا وهى تكاد تخر مغشيا عليها أنها أبصرت أخى أحمد واقفا على كوبرى المنيرة (الذى يعبر سلمه السكة الحديد بين المنيرة وجنينة ناميش) وحاولنا تهدئتها فصرخت بنا أن نحضره حالا قبل أن يسقط من سور الكوبرى فى حملة انقاذ .. وأنا أتخيل أحمد قد شاور عقله وتسلل من بين قضبان الكوبرى ثم هوى على الأشرطة وفلقت دماغه . ثم اقبل القطار فأكمل على بقيته .. وأعدو .. منطلقا .. وأنا أسابق الريح .

وأخيرا .. وصلنا الى الكوبرى .. ولكن .. فيما يبدو لنا .. متأخرين .. إذ لم يكن أحمد فوق الكوبرى ..

وببطء وسكون .. وذهول .. نظرنا .. الى أسفل .. ثم نظرنا الى بعضنا البعض فى دهشة ..

.. اننا لم نجد له أثرا !!

ولم نعرف كيف نعود لوالدتنا .. بغير احمد .. او حتى .. جثته ..

وظللنا مشدوهين على الكوبرى .. لا نستطيع حراكا .. حتى حانت منا

التفافة الى شرفة البيت من بعيد .. فوجدنا بها الوالدة حزينة .. ومعها .. أحمد !!

وعدنا الى البيت لنعلم أنه كان يلعب فى المنور .. وأن الذى ابصرته والدتى طفل يشبهه .

وبعد هذه الوسوسة والخوف .. نشأنا ونحن نمارس لهو الصبية خلسة كأننا نرتكب المعصيات .. أو نفعل المنكر .. وكانت المعصية الكبرى .. والمنكر الأشد .. هو ركوب البسكليت .

وقد أقدم عليه أخى الأكبر .. فى غفلة من والدتى .. وأصبح بين عشية وضحاها من راكبى العجل . وحاولت أن اتبعه فى ارتكاب المعصية وتعلم العجل .. ولكن أمرى كشف .. أن اصبت بسقطة تركت فى وجهى وذراعى خدوشا من الصعب اخفاؤها .. وحاولت أن اتبعه فى ارتكاب المعصية وتعلم العجل .. ولكنى أمرى كشف .. إذ اصبت بسقطة تركت فى وجهى وذراعى خدوشا من الصعب اخفاؤها .. وحاولت أن أغير أسباب الخدوش ولكن أحد الاقرباء كان قد تصادف ورآنى متلبسا بالجريمة . فأبلغ والدتى بالأمر .. وأصبح الانكار بعد الدليلين القاطعين .. أمرا متعذرا .

وركوب العجل عند والدتى .. يعنى إشرافا على الهلاك .. وأحدث النبأ فى البيت ضجة كبرى .. فقد كان الحدث .. منى أنا .. الصبى الطيب الهادىء المطيع .. شديد الوقع .

وكرهت العجل وركوب العجل .. بعد السقطة فى الطريق .. والفضيحة في الدار .. وأنا بطبعى أكره العنف وما يستدعى العنف وما ينتج عن العنف . وأكره أن أتعب نفسى فيما يمكن أن أكون فى غنى عنه .. وأن أشغلها بما لا فائدة لها منه .. وهكذا انتهت المسألة بأن أقنعت نفسى بالكف عن تعلم العجل .. وأن فى العجل الندامة وفى القدم السلامة .. وقنعت من ركوب البسكليت بسلامة الجسد ورضاء الوالدين وقلت لنفسى .. ان الجنة تحت اقدام الأمهات .. والجنة خير من العجل وأبقى .

ومرت بى الأيام دون أن أعاود ركوب العجل .. حتى دخلت الكلية

الحربية .. وأبصرت مخزنا مليئا بالعجل .. فدهشت وتساءلت عن سره فأنبئت أن يستعمل فى طوابير الطبوغرافيا وعلمت أن يوم خروجنا فى هذه الطوابير آت لا ريب فيه .

ولم يكن هنالك بد والأمر من التنازل عن الجنة التى تحت اقدام الامهات .. وأن أقدم على تعلم ركوب العجل بعد أن أضحى ركوبى للعمل لا للهو .

وأذكر أنى شعرت بالكثير من الخجل وأنا أجد نفسى - دون بقية خلق الله الذين فى الكلية - الوحيد الذى لا يركب العجل . وبدأت أضيف شبحا جديدا .. وهو شبح الطبوغرافيا .. الى الأشباح التى تخيفنى فى الكلية .

وبدأت تعلم العجل .. وبعد بضع مرات من التمرين بعد الغداء . كنت اعرف كيف أحفظ توازنى وكيف انطلق بالعجلة فى الفناء . وأحسست بعد ذلك بالطمأنينة تعاودنى .. وبأنى على أتم استعداد لخوض معركة الطبوغرافيا بعجل .. وبغير عجل ..

وبدأت معركة الطبوغرافيا .. هينة لينة .. بين اربعة جدران الفصل .. وموافى على منصة المدرس مشدود القامة بارز الصدر عابس القسمات كفرسان العصور الوسطى . وقد أخذ فى الشرح لنا بلهجة شديدة عنيفة ونبرات قاطعة حاسمة كأنه ينادى على طابور خيالة .

والطبوغرافيا - لمن لا يعرف - هو علم مسح الأرض أو رسم الخرائط .. والطبوغرافيا العسكرية هى كل ما يتعلق بسطح الأرض من الزاوية العسكرية .. من رسم خرائط الأماكن غير المرسومة بالمسطحات والبانوراما (الرسم المائل) وقراءة الخرائط المرسومة وتكبيرها للمقاييس المختلفة وإيجاد محل الانسان عليها والسير بالبوصلة والنجوم .. أو هو باختصار .. علم هداية العسكريين فى المعارك .. والعصا التى يتلمسون بها طريقهم فى الأراضى المجهولة .

هذا هو علم الطبوغرافيا العسكرية .. كما يفهمه عباد الله .. أما كما كنا

نفهمه وقتذاك .. فهو شيء أبعد ما يكون عن هذا .. كان كل ما يعيه ذهننا عنه ينحصر في أشياء ثلاثة : « غراب على شجرة » و « سكة حديد من تحت ترعة » و تشوفها ولا ماتشوفهاش » .

وربما تبدو تلك الاشياء عجيبة في نظر القارئ .. وربما يهز رأسه في دهشة ويتساءل عن صلة هذه التخاويف بعلم الطبوغرافيا .. وربما يظنها هلوسة من صنع أحلام الضحى التي كانت تتراءى لنا خلال حصص الطبوغرافيا ..

ولست انكر أن أحلام الضحى كانت لا تنفك تراودنا .. وأن المعركة بينها وبين شرح موافي كانت على أشدها .. وأننا كنا نترجح بين الطرفين .. تارة نغفو من اغرائها الناعم المعسول .. وتارة نفزع من صرخاته الحادة القاطعة .

ولكني أعترف أن موافي كان أقدر المدرسين على الاحتفاظ بيقظتنا . وأن أحلام الضحى كانت لا تكاد تقترب من أعيننا حتى تفر هاربة من صيحاته .. وعلى ذلك أستطيع أن أؤكد .. أن ما وعيناه عن الطبوغرافيا وقتذاك .. من « غراب على شجرة » الى « سكة حديد تحت ترعة » الى « تشوفها ولا ما تشوفهاش » لم يكن من وحي أحلام الضحى .. بل كان من صميم الواقع .. أو من صميم .. الطبوغرافيا ..

أما عن الغراب - النائم أو الواقف لست أدري - على شجرة .. فهو يمثل الجزء من الطبوغرافيا الخاص بإيجاد المحل على الخريطة ..(وهذه مسألة عرفتها بالطبع فيما بعد) .

كنت أجلس على المقعد وقتذاك محملقا في وجه موافي ذي الشارب الدقيق الأنيق .. والوجه الجاف البارز عظام الوجنتين والفك العريض .. والالفاظ الحادة والجمل السريعة الحاسمة تتطاير من شفتيه .. فيتطاير معها النوم الذي يغالبنا .. ويترك الذهن شاردا تائها سرحان يتنقل بين الخروج يوم الخميس بالبدلة الكحلي ذات الشريط الاحمر .. التي صرفت الينا وبدأ تقييفها . وبين سنجة المترو التي يبدو طرفها من خلال النافذة فيحمل الينا ذكرى الاحياء

الطليقين المتنعمين بالسير فى الشوارع وركوب الأوتوبيس والمترو وأكل الطعمية علنا بلا تهرب ولا خوف ثم ينتقل الذهن فجأة الى دولاب الملابس حيث استقرت بعض القراقيش وقطعة من الشوكولاته أخفيتها خلسة لكى آكلها قبل أن يضبطنى بها أحد . ثم أتصور الجزاء الذى يمكن أن يوقع على .. وهكذا يظل الذهن ينتقل شاردا .. وموافى منطلقا فى شرحه .. يحدثنا عن كيفية رصد غرض شهير بالبوصلة وحساب الزاوية الفلكية .. ثم ينتقل الى وصف الغرض الشهير . وتحديده بأنه شىء ثابت معروف . كبرج كنيسة أو مئذنة جامع أو تبة عالية أو شجرة كبيرة .. ثم يختم قوله محذرا « يعنى مثلا مترصدش غراب على شجرة ».

وهنا يفيق الذهن .. فلا يلتقط من طول الشرح والتفسير.. والاخذ والرد.. الا قوله الاخير « غراب على شجرة » فإذا حاول إعادة الشرح.. عاود الذهن سرحانه فلا يفيق من شروده الا على الخاتمة.. ذات الغراب والشجرة.. ولا أخرج فى النهاية من درس الطبوغرافيا الطويل العريض .. الا بغراب على شجرة .

وهكذا كنت أعتبر مبادىء الطبوغرافيا تنحصر فى الغراب على الشجرة.. وكنت فى بعض الاحيان أسائل نفسى ما صلة الغراب بالشجرة بالطبوغرافيا.. وهل من الضرورى أن يكون الغراب واقفا على الشجرة .. وإذا طار عن الشجرة .. هل ينهار علم الطبوغرافيا.

ولقد تجرأت ذات مرة وسألت جارى مستفسرا فى همس « ايه حكاية الغراب اللى على الشجرة » ورفع جارى كتفيه وقلب شفته السفلى علامة أنه لا يدرى.. واتضح لى بهذا أن معلوماتى فوق معلوماته وأنه فى سرحانه كان أبعد مدى لأنه لم يسمع حتى عن « غراب على شجرة ».

هذا هو ما كان من أمر الغراب والشجرة .. فى درس الطبوغرافيا أما ما كان من أمر السكة الحديد والترعة فقد كانت بدورها تعبر عن درس آخر .. وهو الاشارات الاصطلاحية.

كانت الاشارات الاصطلاحية .. هى إشارات اصطلح على أن ترسم فى

الخرائط المدلاة على هيئات معينة كالسكك الحديد والكبارى والجسور والمزلقانات و .. وأغلب الظن أن موافى بدأ انهماكه فى شرح هذه الاشارات.. واستمر منهمكا فيها .. والذهن منهمكا فى سرحانه حتى وصل الى الكبارى .. وإذا بى أفيق لأسمعه يقول مشيراً على التختة :

« يعنى مثلا إذا كان عندنا سكة حديد من تحت ترعة .. » .

وعلق ذهنى بهذه الجملة .. وهو لا يعلق .. أو لا يعلق به الا الاشياء التى لا يجب أن تعلق به ..

وبدأت أتصور السكة الحديد التى تسير من تحت الترعة .. ولست أدرى كيف قالها موافى .. أكان يقصدها حقا .. أم كانت زلة لسان .. أم كانت نكتة.

على أية حال.. لقد كان موافى يلقى النكت فى بعض الاحيان.. ولكنه كان يلقيها بطريقة جادة حاسمة قاطعة كما يلقى كل أحاديثه.. الى الحد الذى تمرينا ونحن لا نكاد نميز أنها نكتة ونأخذها على أنها من أصول الطبوغرافيا.. ولا شك أنه لو كان يقصد بالسكة الحديد التى تمر من تحت الترعة - نكتة .. فنحن لم نأخذها أبدا على أنها نكتة الى درجة أن أحدنا جرؤ واعترض هامسا «مايمكنش» وبلغ الهمس سمع موافى فصاح « طيب بلاش سكة حديد.. خليها مترو » .

وقد يكون موافى مستمرا فى نكته .. وقد يكون البعض حملها فعلا محل النكتة .. ولكن .. عنى أنا .. الفازع من وجه موافى ومن شخطه .. لم أتصور أبدا أنه يمكن أن يخرج النكتة .. وعلى ذلك اعتبرت المسألة من صميم علم الطبوغرافيا .. وكانت الفائدة الثانية التى استفدتها من الطبوغرافيا غير أن الغراب على شجرة ، هى أننا نستطيع بالطبوغرافيا أن نمرر السكة الحديد والمترو من أسفل الترع .. أما كيف .. ولم .. فهذا ما لم أحاول السؤال عنه .

بقيت المسألة الثالثة .. وهى تشوفها والا ما تشوفهاش ؟ » .. ولم أكن أعرف بالطبع من هى التى تشوفها .. ومن هى « اللى ما تشوفهاش » وتشوفها ليه .. وما تشوفهاش ليه .. وإذا كانت تشوفهاً يجرى ايه ؟ وإذا كانت ما تشوفهاش يجرى ايه ؟ .

كل هذا لم أكن أدرى عنه فى بادىء الأمر شيئا .. بل كان كل ما أدريه هو أن هناك سؤالا يتطاير فى حصة الطبوغرافيا .. تشوفها ؟ .. والا ماتشوفهاش ؟ .. وكان على أن أجيب عليه أحيانا .. وكنت أجيب عنه فعلا .. وأرمى الاجابة كما يقولون ضربة لازب .. يا طابت يا اتنين عور .. مرة تشوفها .. ومرة ما تشوفهاش .. وأحيانا كانت الاجابة تصح .. وأحيانا أخرى كانت لا تصح .. وفى كلتا الحالتين لم أكن أدرى لم صحت ولم لم تصح .

ورويدا .. رويدا .. بدأت اعلم أن هناك شيئا اسمه الظهور المتبادل .. وأن من أصول الحرب أن يعرف الانسان مواقعه التى سيختارها على الخريطة .. ويعرف مدى الرؤية أمامها وهل ترى مواضع معينة أم تحجبها عنها تلال أو عوائق قائمة بينهما .

كل هذا بالطبع لم أكن أعرف عنه شيئا .. ولكن بدأت أعرف فقط أن تشوفها وماتشوفهاش .. هى مسألة بين نقطتين .. بعد أن مر بى زمن وأنا أتخيل أنها بين امرأتين وأن أحداهما لا تريد أن ترى الأخرى .. وأن السؤال يطلب توضيح ما إذا كانت « تشوفها والا ما تشوفهاش » وكنت أسائل ما صلة هاتين المرأتين بالطبوغرافيا ولماذا نعيى أذهاننا بمعرفة ما إذا كانت أحداهما تشوف الأخرى والا ما تشوفهاش .. ولكنى لم أكن أملك الا أن أهز كتفى قائلا لنفسى : « يعنى هو الغراب اللى على الشجرة دخله ايه فى الطبوغرافيا .. أهى جملة » .

وأذكر أن موافى أجرى لنا امتحانا قصيرا لاختبارنا وقتذاك وبعد أن كتب الاسئلة على التختة أخذت فى قراءتها .. السؤال بعد السؤال وأنا لا أكاد أفهم شيئا مما أقرأ ، حتى وصلت للسؤال الاخير فإذا به مسألة عن الظهور المتبادل ، وفى نهايتها « تشوفها والا ما تشوفهاش » وكانت تلك هى الجملة الوحيدة التى فهمتها من التختة ومضت برهة وأنا لا أعرف بماذا أجيب ، وأخيرا همست لجارى :

تشوفها والا ماتشوفهاش » ؟

والتفت الى جارى فى دهشة وتساءل بدوره « ايه ؟ » .

ورحت أكرر سؤالى :

« تشوفها ولا ماتشوفهاش » ؟

« ايه اللى تشوفها ولا ماتشوفهاش » ؟

« السؤال الأخير ؟ ؟ ! » .

ووجدته يرفع كتفيه ويبرز شفتيه علامة الدهشة والاستنكار وهمس فى تبرم :

ايه هو ده ؟ .. الجدع ده بقاله جمعتين داويشنا بتشوفها والا مبتشوفهاش .. احنا مالنا .. عنها ما شافتها » .

واتضح لى من تبرمه .. أن معلوماته عن المسألة لم تتجاوز بعد معلوماتى عندما كنت أظن المسألة محصورة بين أمرأتين .

تلك هى الاركان الرئيسية الثلاثة التى كان يقوم عليها علم الطبوغرافيا .. أما الركن الرابع .. فقد كان .. « البلانشيطة » .

والبلانشيطة .. هى لوحة تستند الى حامل من ثلاثة قوائم أشبه بحامل آلة التصوير .. تستعمل فى مسح الاراضى ..

وفى أول خروج لنا بالبلانشيطة .. وقفنا نشد الحامل واللوحة الى العجلة .. وقد ارتدينا البدلة الكاكى ذات الأسبليط الأحمر والبنطلون القصير والقالشين .. ووضعنا فوق الطربوش مظلة كاكى أشبه بمظلات الكناسين قد حجب رفرفها الأمامى أعيننا وتهدل رفرفها الخلفى العريض على أقفيتنا وظهورنا .

واصطففنا فى ميدان الطابور استعدادا للطابور .. وكنت أكاد أسمع دقات قلبى . فقد كانت المسألة بالنسبة لى مغامرة كبرى ..

حقيقة أنى تعلمت ركوب العجل .. ولكنه ركوب خفيف .. ألف خلاله فى الفناء بالعجلة مجردة وأنا وحدى .. أما أن أخرج هكذا فى طابور والعجلة محملة بالبلانشيطة وأنا محمل بالمظلة وشنطة الجراية فكان أمرا يستدعى

الجزع .

وركبنا .. ووجدت من الخير أن أتسلل الى ذيل الطابور حتى لا أعرقل نظامه .. وبدأت أحرك البدال .. وسارت بى العجلة .. وأنا أحافظ على توازنى ومن أسفلى الحامل والبلانشيطة .

وفى هذه الزحمة الكبرى التى أنا فيها .. وأنا أعبر مع الطابور شارع بن سندر .. سمعت عبد العزيز يهتف بى « شايف البنت دى » .

وكنت أكاد أسير .. وكان آخر ما يخطر لى ببال .. هو البصبصة .. لأنى كنت اعتقد أن أى تحول ببصرى عما أمامى .. سيلقى بى الى التهلكة . ولم أملك اجابة على قول صاحبى الا قول أخينا الضرير للعسكرى الانجليزى .

واستمررنا فى السير .. حتى وصلنا الى المنطقة المجاورة لسراى القبة . فحططنا رحالنا .. وبدأ موافى يلقى تعليماته الينا محددا المنطقة المطلوب رسمها . وبعد أن تلقينا التعليمات . تفرقنا فى المنطقة .

وكان ضمن المطلوب رسمه السور الخلفى للسراى المطل على المزارع والحقول .. وكانت المنطقة متسعة سرعان ما ذابت فيها جموعنا . حتى لم أعد أبصر من حولى الا نفرا أو نفرين .. وكان أبدع ما فى الامر أن موافى نفسه لم يبد له أثر .

وتلفت عن يمينى فوجدت السور المطلوب رسمه وتلفت عن يسارى فوجدت غيط خيار وقناة عريضة تلمع فيها المياه . وقد جلس على حافتها أحد الفلاحين يصطاد السمك .

وأنا احب الخيار .. أحبه بلا جدال .. أكثر من مواف ومن الطبوغرافيا ومن سور السراى وتلفت حولى مرة أخرى فوجدت المسألة صفصفت على أنا وحسن فريد ..

- وهتفت به صائحا :

- أيه يا بو على .. مانفسكش تاكل خيار ؟

- أى والله ..

- طيب ياللا بينا ننزل على الغيط ..

- طب وصاحبك ؟ .. (يقصد موافى) .

- ما تخافش .. مش باين له أثر ..

- وصاحب الغيط ؟

- يا أخى نديله قرش ..

وفى لمح البصر كانت البلانشيطات متكئة بجوار السور وكنا نحن نخوض الغيط باحثين عن الخيار .. ولقينا صاحب الغيط فرحب بنا . وحييناه فرد التحية بأحسن منها . قلنا له :

- عايزين ناكل خيار يا حاج .

- كلم زى مانتو عايزين .. بس ما تخدوش معاكم .

- وانطلقنا فى الغيط .. وليس الذ من الخيار فى غيطه لا سيما إذا كان مجانا .. وأؤكد أننا أكلنا من الخيار ما لم يخطر على بال الرجل أن آدميين يمكن أن يأكلا مثله .. وأؤكد كذلك أنه ندم أشد الندم على تصريحه لنا .

وكان يجب وقد أمتلأنا وشبعنا أن نعود السور والى البلانشيطة .. وقد هممنا فعلا بالعودة عندما لمح حسن فريد الرجل صاحب السنارة الذى جلس يصطاد على حافة الترعة وسمعته يهتف بى :

- اسمع .. الظاهر أن الترعة مليانة سمك .. ما تيجى نصطاد شوية ..

- نصطاد بايه .. ؟

- نصطاد بأدينا .. دى الترعة مش غويطة ..

- يالله ياجدع بلاش عبط .. فيه حد يصطاد سمك بأيديه .. يالله لحسن عمك موافى يطب علينا .

ولكن حسن اتجه الى الترعة .. وهممت أنا بالعودة عندما طاف الشيطان

بذهنى فهيأ لى أن الترعة فعلا مليئة بالسمك .. وأن صاحبى سيفوز وحده بالغنيمة .. فوجدت من الخير أن اتبعه حتى لا أترك الفرصة تضيع . وقلت لنفسى بضع دقائق لن تؤخرنا كثيرا .

ووقف صاحبى على حافة الترعة وكانت تبدو على سطحها فقاقيع ودوامات صغيرة .. وكان كلما أبصر أحدها صاح فى نشوة :

- أهى دى سمكة .

وأخيرا لم يستطع الصبر ووجدته انثنى بجسده لأسفل مادا يده بشنطة الجراية بعد ان افرغها مما بها محاولا أن يرفع بها بعض السمك كأنه شبكة . وازداد تحمسه وهو يجد الفقاقيع تتكاثر ويلمح فعلا احدى السمكات تبدو من خلال الماء . وازداد ميلا .. حتى .. سقط فى الترعة ..

ولم تكن المأساة .. كامنة فى خطورة السقطة .. لأن قاع الترعة كان قريبا .. ولكن كانت فى كيفية خروجه منها . وفى كيفية تنشيف ملابسه وتنظيفها . ومددت له يدى اليمنى محاولا جذبه ولكننى وجدت نفسى انزلق معه .. ووجدنا انفسنا نحن الاثنين وقد غرقنا فى الوحل والطين حتى ما فوق الركبة .

وأخيرا استطعنا الخروج من الترعة وكان علينا أن نقضى بقية الوقت المخصص للرسم . فى تنظيف القلشين وتجفيفه .

وانتهى الطابور وتجمعنا . دون أن نخط فى لوحة الرسم خطا واحدا .

وعدنا الى الكلية . وكان علينا أن نسلم اللوحات عقب تنظيفها وكتابة البيانات ورسم المقياس عليها .

وجلست فى الفصل فى حصة المذاكرة وأنا ابصر الجميع قد انهمكوا فى لوحاتهم وأنا وصاحبى نتبادل النظر فى يأس شديد .. ماذا يمكن أن نقول عندما نسلم اللوحات بيضاء من غير سوء ! .. أن المسألة قد تنتهى على الاقل بشنقنا .

وفجأة خطر لى خاطر عجيب .. هتفت على أثره لصاحبى :

- اسمع .. تعرف تجيب لنا دفتر التليفون ..

ودهش صاحبى .. ولكنه تسلل من الفصل وعاد بعد لحظة ومعه دفتر التليفون .. وقلبت صفحاته .. وكانت توضع فى نهاية الدفتر وقتذاك خرائط لكل أحياء القاهرة .. وفى سرعة البرق نزعت الصفحة التى بها منطقة سراى القبة ولم تنته الحصة حتى كنت وصاحبى قد نقلناها على لوحاتنا بالمقياس المطلوب .

وأعاد صاحبى الدفتر وكانت المرة الأولى .. والأخيرة .. التى أحس فيها بامتنان وتقدير لمصلحة التليفونات .

غافلت القدر .. وسافرت

كنت أستعد للسفر الى فيينا .

كنت أستعد وأنا واثق أني لن أسافر .. لأن كل محاولاتي في السفر الى الخارج باءت بالفشل ، ولم يكن هناك ما يدعوني قط للاعتقاد بأن سوء الحظ الذي لازمني في كل محاولة سيتخلى عني في هذه المحاولة ..

سنحت لي الفرصة الأولى للسفر وأنا طالب أوشك على التخرج من الكلية الحربية ، وكنت الرابع في الأقدمية بين طلبة القسم النهائي .. وكانت الدفعة وقتذاك لا تتجاوز العشرين وغالبا ما يحتفظ كل منهم بأقدميته التي حصل عليها في أول امتحان في القسم الاعدادي لأن الاقدمية تحسب عند التخرج بضم المجاميع الثلاثة التي يحصل عليها الطالب في السنوات الثلاث .

وكان الأربعة الأوائل يرسلون الى بعثة في وولتش بانجلترا لدراسة المدفعية .. وكان المفروض إذا حافظت على أقدميتي أن أكون ضمن المبعوثين الأربعة .. وكنت أعلق على السفر آمالا كبارا .. وأعتبر أن مستقبلي .. ومستقبل المدفعية في مصر .. سيضيعان .. إذا ضاعت مني هذه البعثة .

وبدأ سوء الحظ يطل بأنفه عندما أعلن في المدرسة انضمام القسم المتوسط الى القسم النهائي ودخولهم جميعا امتحانا واحدا تحسب على أساسه أقدمية التخرج بصرف النظر عن الامتحانات السابقة .

وأحسست أني أوشك أن أخوض معركة مذاكرة .. وأنا لم أحصل على

أقدميتي السابقة الا بامتحان مفاجيء .. لم يكن أمام أحد منا فرصة المذاكرة .. فأنا مستذكر فاشل .. شديد السرحان أمام صفحات الكتب المدرسية .. حتى لأذكر أني توقفت أمام إحدى صفحات كتب التاريخ الطبيعي وأنا في الثانية الثانوية .. ثلاثة أشهر .. وأنا لا أتجاوزها حتى بليت الصفحة ..

وأذكر أيضا وأنا فى كلية أركان حرب .. عمارة كانت تبنى أمامنا .. وكانت تلوح لى من بعد خلال النافذة المواجهة لمقعدى .. وكنت لا أملك نفسى من السرحان في مراقبة بناء العمارة .. وأخذت العمارة ترتفع دورا بعد دور .. حتى تم بناؤها .. ووجدت جارى وهو اليوزباشى المهندس حمدى المغربى يضرب كفا بكف ويقول لى فى أسف :

يا خسارة العمارة خلصت .. حتسرح فى ايه بقية السنة ؟

ويمثل هذا السرحان أمام صفحات الدراسة .. كان على أن أخوض معركة مذاكرة .. خرجت منها .. وقد طارت الأقدمية .. وطارت معها البعثة .

ولم يضع مستقبلى بالطبع .. ولا ضاع مستقبل المدفعية فى مصر ..

وسنحت الفرصة الثانية بعد سنتين فى أول عام ١٩٣٩ قبل بدء الحرب الأخيرة . عندما تقرر إرسال أول مجموعة من ضباط المدرعات لانجلترا لدراسة المدفعية والصيانة واللاسلكى ورشحت مع البارودى لبعثة الصيانة .. ومرة أخرى بدأت أعلق الآمال الكبار .. وبدا لى مستقبلى .. ومستقبل صيانة المدرعات فى مصر معلقا على ذهابى فى هذه البعثة .

وقبل أن يتقرر موعد السفر قلب البارودى إحدى العربات فى طابور السواقة وجوزى بإحالته الى الاستيداع لمدة ستة أشهر .

ورشح أحمد رياض قائد الآلاى وقتذاك حسين الشافعى للسفر بدل البارودى ، وأخذت وحسين نعد العدة للسفر ونتأهب له ونرسم فى أذهاننا الخطوط الذهبية لمستقبل باهر سعيد .. لنفسينا ولمدرعات مصر ..

وتأجلت البعثة بضعة أشهر .. ولم يكن علينا من ضير فى الانتظار

ما دام حلمنا الأكبر . سيتحقق فى نهايتها .. ولكن أشهر الانتظار طالت .. حتى تجاوزت الأشهر التى أحيل خلالها البارودى الى الاستيداع فعاد الى الخدمة .. واتخذ مكانه ثانيا فى البعثة .. وتبددت أحلام حسين هذه المرة .. وطارت منه البعثة .. أو باتت كما يقولون فرحة ما تمت .. أخذها البارودى وطار .

وتحدد يوم السفر وبات أمره أكيدا لا ريب فيه . وأضحت أحلامى فيه حقيقة ملموسة واقعة .. وبدأنا نعد أوراقنا .. ولم يعد علينا الا نتقدم لوزير الحربية ليرانا مع بقية المبعوثين الى انجلترا .

وفى صباح يوم مفترج .. ارتديت ملابس مقابلة الحكام .. الحذاء الطويل وبنطلون الركوب وتمنطقت بالسيف مشدودوا بمقبضه الكروى اللامع الى وسطى ..مدلى بحده الطويل الى جانبى .. وسرت والبارودى الى وزارة الحربية .. وكأننا سنفتح عكا .

وفى مبنى وزارة الحربية وقفنا مشدودين بسيوفنا مع بقية الزملاء المبعوثين حتى أقبل علينا رئيس هيئة اركان الحرب الفريق محمود شكرى بقامته الرفيعة وجسده الطويل وصوته الهادىء وملامحه الطيبة وتمم علينا ليدخلنا الى الوزير :

وفى تلك اللحظة .. وقبل أن ندخل مكتب الوزير .. أقبل علينا حسين لاهثا وقد ارتدى بدلة الركوب وتمنطق بالسيف وسألناه فى دهشة :

- ايه اللى جابك ؟

- أنا عارف !! .. قالولى الحق حالا قدم نفسك للوزير مع المسافرين .

وشددت على يده فى نشوة وسرنى أن نسافر ثلاثتنا والا يخذل الله أحدا منا أو يضيع أمانيه .

وتقدم بنا الرجل الطويل الرفيع الى مكتب الوزير ..

وكانت المرة الأولى التى أدخل فيها مكتب وزير .. بل لعلها المرة الأولى التى أرى فيها وزيرا .. بمهابته وفخامته .

ولاح لنا حسين سرى .. فى أقصى الحجرة .. وراء مكتبه الفاخر وقد اتكأ بكرسيه الى الوراء وأخذ يتفرس فينا بنظرات عدائية متعالية .. حتى أدخل فى روعي .. أنى مذنب فى قفص الاتهام ولست مبعوثا فى مكتب وزير .

وبدأ الوزير حديثه .. بلا ترحيب ولا سلام .. بل بأسئلة عدائية مهاجمة .. كأن بيننا وبينه عداء قديما ..

وصاح بأولنا وكان البارودى :

- انت رحت الاستيداع ليه ؟

- لأنى قلبت عربية .

وفى صرخة ناهرة صاح فيه :

- قول بالانجليزى .

وقالها البارودى بالانجليزى .. بطريقة جعلت الوزير يقلب شفتيه .. بقرف وامتعاض .

وانتقل الى ..

وأحسست بالرهبة تزداد بى .. واللخمة تطبق على أنفاسى .. وتملكنى احساس الجالس أمام لجنة امتحان شفوى انجليزى .. يرأسها .. وزير .. أو بتعبير أصح .. يقود هجومها .. وزير ..

وسألنى الوزير فى لهجته العدائية الخاطفة :

- متى تخرجت ؟

والاجابة بسيطة .. فانى قد تخرجت سنة ١٩٣٧ .. والمسألة لا تحتاج الى ذاكرة أو مشقة .. بل كان يمكننى أن أقول أى كلام بلا تدقيق فلا أظن الرجل كان يعرف تاريخ تخرجى ولا أظنه كان سيجرى تحقيقا فى صحة الكلام .

ومع ذلك وجدت الذاكرة تبحث عن الرقم .. والرقم يفلت منها .. بلا أى مبرر وعندما أمسكت به .. وبدأت أترجمه الى الانجليزية .. كان الرجل

قد مل من طول صمتي .. وانتقل بهجومه الخاطف الى حسين .

وخرجنا من مكتبه .. ليسافر البارودي وحسين .. وأبقى أنا .. وطارت البعثة للمرة الثانية .

أما الثالثة فسنحت لى في أبريل سنة ١٩٥٤ فى نفس الوقت الذى كنت أعد فيه مجلة الرسالة الجديدة للظهور .. وكان السفر مستحيلا .. وأعتذرت .

أما الرابعة .. فكانت بعثة ضباط الأركان حرب الى ايطاليا وكنت أعتقد أن الدور قد حل على للسفر .. ولكن قيل لي .. لقد أضعته باعتذارك ..

ولم أتضايق كثيرا .. وقلت لنفسى « بجملة .. وأنا بطبعي لا أحزن كثيرا على الفرص الضائعة .. ولا سيما التى لم يكن لى فضل فى إضاعتها .. وأحاول أن أفهم نفسى أن الله يحبنى .. وأنه يدبر لى الأفضل .. وأن أقنعها بأن ما فى يدى خير مما ضاع منى .

وسنحت الفرصة الخامسة .. دعوة لمؤتمر نادى القلم فى فيينا .. ولم أرفضها .. ولم أتحمس لها .. بل قبلتها على أنها شىء ضائع .. وفضلت أن أمنح الأقدار متعة اضاعتها كما أضاعت بقية الفرص .

وبدأت أستعد للسفر .. وأتصرف باستعباط .. كأنبى مسافر حقا .. وأنا فى قرارة نفسى وأثق أنى لن أسافر .

وقبيل السفر .. التهبت إحدى عينى .. واعتبرت المسألة إنذارا بمعاكسات القدر .. وتذكرت هذه الهبة من وجع العين التي يرسلها القدر الى كل عيد فى طفولتى على سبيل الهدية لكى يحرمنى من التمتع بالعيد على الوجه الأكمل ..

وتجاهلت الانذار .. واستمررت في إجراءات السفر .. استخرجت جواز السفر وأخذت التأشيرات وحجزت على الباخرة .. وفعلت كل ما يفعله أى مسافر .. ليس بينه وبين القدر خصومة .

ولم يعد على السفر سوى يومين .. ووجدت أن المسألة قد أضحت جداً .. ومع ذلك لم أكن أصدق أنى سأسافر فعلا .. وكنت أتوقع بين الحين

والآخر عملا مفاجئا من القدر لمنعه .

وفعلا تحقق ظنى .. وأقدم القدر فى اللحظة الأخيرة على العمل البهلوانى المفاجىء .

كان القائد العام للقوات المسلحة يمر على المدرعات الجديدة فى الفرسان .. ومررت معه .. وطال بنا المرور فى الهجير قرابة ساعتين وبعد انتهاء المرور دعوته لشراب شعير مثلج كنت قد أعددته فى مكتبى فاعتذر بأنه على موعد ..

وكرهت أن يضيع الشعير المثلج سدى فأصررت على دعوة بقية الضباط لاحتسائه .. وعدت الى مكتبى ومعى عبد العزيز مصطفى مدير الفرسان وحافظ إسماعيل مدير مكتب القائد العام .

وبدأنا نعب الشعير .. وقد جفت حلوقنا .. وتصبب عرقنا .. ثم جلسنا نتحدث فى راحة واسترخاء .. وبعد بضع دقائق أحسست بالتواء فى معدتى .. وبدأ الألم يزداد شيئا فشيئا .. وحاولت أن أخفيه حتى ينصرف ضيوفى .. ولكنهم لاحظوا شحوبا مخيفا فى وجهى .. لم أستطع بعده إخفاء ألمى .

ورقدت فى مكتبى .. وبعد بضع لحظات .. أتى طبيب ودفع فى ذراعى بحقنة مسكنة لم تجد نفعا .

كان بجوفى ألم قاتل .. انتهى بى الى شبه إغماء .. حملونى بعده الى مستشفى مظهر عاشور .. لاجراء عملية .. أى عملية .. تنقذنى مما أنا فيه .

وفى وسط هذه الآلام المخيفة نظرت الى سقف الحجرة وبدا لى أن القدر يبتسم فى خبث .. وهززت رأسى وهمست به فى استعطاف « خلاص مش مسافر .. بس سيبنى » ولم يعد لى أى أمل فى السفر كنت واثقا أن عملية أعور ستجرى لى .. وأن على أن أرضخ لمشيئة القدر .

وبعد برهة أقبل الدكتور مظهر .. وأخذ يفحصنى .. وعندما انتهى من فحصى .. أمر باستبقائى فى المستشفى .

وغادرنى الدكتور على أن يعاود فحصى مرة أخرى بعد بضع ساعات

عندما يزول أثر الحقنة التى أعطاها لى الطبيب الأول وبدأ الألم يخف رويدا رويدا .. وبدأ الأمل في السفر يعاودني .. وخيل الى أنى أستطيع أن أغافل القدر المطمئن الى رقدتى .

وكان الزوار يحيطون بى وهم ينظرون الى فى جزع وإشفاق ..

وفجأة نهضت من فراشى وارتديت ملابسى .. ونظرت الى الزوار معتذرا وانطلقت هاربا من المستشفى .. والممرضات يعدون فى أثرى .

وفى اليوم التالى كنت أجلس فى الباخرة .. أتنفس الصعداء وهى تتباعد عن الميناء .. ونسيم البحر يلفح وجهى وخيل الى أن هناك وجها يعدو فى الميناء للحاق بالباخرة .. وأنه يصيح بمن حوله :

« انه مريض أعيدوه الى فراشه .. لقد غافلنى وهرب » ..

ولم أدر أكان الوجه .. وجه الطبيب .. أم وجه القدر .. أم وجه زوجتى التى لم تعرف الا بعد أن سافرت .

يا بلاش بنصف الثمن

في حياتي العامة أعمال كثيرة لا أتقنها .. ولا أحب أن أعرض نفسي لأدائها .

من بين هذه الاعمال .. إن لم يكن أولها .. عمليات الشراء . !

فأنا أمثل دائما – أو هكذا يزعم أهلي – دور المغلوب في عملية .. أو معركة بالشراء .. ففي كل صفقة أخوض غمارها .. لا بد أن أكون خاسرا .. ولا بد أن يكون البائع في نظرهم قد ضحك علي ..

وفي قرارة نفسي .. لم أحس قط بندم على صفقة خاسرة عقدتها .. فأنا اقنع نفسي بأن خسارتي في الصفقة تمثل بلا شك ربحا للطرف الآخر .

وهو غالبا ما يكون من صغار الباعة الذي لا أرى ربحه مني ربحا في غير موضعه .. بل هو حسنة مستحقة بطريق لا اذلال فيه ولا حرج منه .. وأنا لا أرى في البائع خصما لي يجب أن أحرمه ربحه .. أو أقلله الى الحد الذي لا يجزي جهده .. ولا أرى في صفقة البيع والشراء معركة .. الرابح فيها هو الذي ينزل بخصمه خسارة أفدح وضررا أكبر . بل هي عملية تعاون على الحياة .. الرابح فيها هو الذي يقدم للغير معونة أكبر وربحا ..

تلك هي نظريتي في الشراء .. ويعلم الله إن كانت عن مبادىء طيبة .. أم هي مجرد عذر أريح به نفسي .. وابرر به خيبتي الشرائية الدائمة .. على أية حال .. لقد اقنعت نفسي بها .. وانتهى الامر .. ولم يعد يقلقني أبدا .. أن

أخوض عمليات الشراء .. وأخرج منها خاسرا مغلوبا .. ما دامت العملية عملية تعاون انسانى .. وما دمت أقوم بدورى فى ربح الغير .. حتى شروة الفاكهة البايتة التى اشتريتها .. لم تزعجنى قط عندما اكتشفت أنها بايتة .. وأنها توشك على التلف .. وأنى اشتريتها وهى فى الرمق الأخير .. بل عزيت نفسى بأننى لو لم يبعثنى الله لشرائها .. لقضى عليها فى خانوت صاحبها .. وحرمت أنا من أكلها .. وحرم صاحبها من ثمنها ..

وبهذا المنطق السليم والتفكير المقنع اقنعت نفسى بأن صفقة الفاكهة البايتة من أعقل الصفقات التى عقدت فى مصر - بعد صفقة الاسلحة طبعا - فقد كان على الفكهانى أن يبيع الفاكهة قبل أن يصيبها التلف .. فلماذا لا أشتريها أنا .. ؟ ما دمت أريد أن أشترى فاكهة .. وما زالت الفاكهة حتى لحظة شراءها صالحة للأكل ؟

وذهبت الى البيت بالفاكهة .. وأنا سعيد .. ولكنى لم أقابل بنفس السعادة .. فقد وجدت أن المنطق السليم الذى أقنعنى .. لم يقنعهم قط .. وتلك هى مصيبتى فى عمليات الشراء .. فهم لا يقتنعون قط بواجبى نحو البائع .. بل يؤكدون أن واجبى هو أن أشترى ما يصلح لا أن أعين البائع على بيع ما لا يصلح .. ويؤكدون أن الباعة يعتبروننى « لقطة » وأنهم لا يجدون من « يستكردونه » فى مصر خيرا منى !

وكان على أن اجد حلا لمشكلة الشراء .. توفق بين نظرياتى ونظريات أهل البيت .. وتنجينى من لومهم .. مع الاحتفاظ بصداقتى مع الباعة .. أو كما يسمونها .. بخيبتى فى الشراء .

ولم يكن الحل عسيرا .. فقد كان لا يحتاج الى أكثر من عملية خصم دائمة .. أقوم بها فى أسعار مشترياتى بحيث تظهرنى بمظهر الناصح المدقق .. الذى لا يقدر عليه تاجر .. ولا يغلبه بائع .. أو كما قال الحجاج « لا يقعقع له بالشنان ولا يغمز جانبه كتغماز التين » .

ووجدت فى عملية الخصم منقذا لى .. أشترى من البائع بما يريد .. وأعطى البيت بما يريدون .. أمارس الخيبة فى السوق .. وأظهر الشطارة فى

البيت .. لقد أرحت الجميع .. عدا جيبى .. الذى كان عليه أن يتحمل فارق السعر .. أو على الأصح الفارق بين خيبتى الواقعة وشطارتى الموهومة .

وبدأت أجرب أولى عمليات الشطارة .. فى بعض مشتريات من محل صديق لى وهو « يحيى دانش » حتى أعرف منه السعر الحقيقى بالضبط .. وحتى أجرى الخصم المعقول الذى يبدينى أمامهم شاطرا .. وليس مضحكا .. وأفهمت صديقى ما أنوى أن أفعله .. وطلبت منه - بعد أن قبلت السعر الذى عرضه - أن ينبئنى بأدنى سعر يمكن أن أذكره لهم .. بعد أن أحطته علما بشطارة حماتى وبالخصم الذى يجرونه لها فى صيدناوى ..

وحملت البضاعة .. بعد أن حفظت الأسعار المخفضة .. وفى البيت وقفت أعلن الاسعار وانتظر دهشتهم من مهارتى واعجابهم بشطارتى .. ولكنى وجدت حماتى تقول ببساطة :

- ضحكوا عليك .. أنا باجيبها من صيدناوى بنص الثمن ..

وذهبت الى دانش حانقا .. فقد كرهت أن يخدعنى حتى فى التخفيض الاسمى الذى طلبته منه ولكنى وجدته يجيبنى فى دهشة :

- مش ممكن .. نص الثمن ازاى .

- أهى قالت كده ..

- اسمع لما أقولك .. أحسن حاجة المرة الجاية .. قول لها .. أنى اديتك الحاجة هدية .. أما نشوف بقى حاتقول ايه ؟

وأجبته ضاحكا :

- حاتقول فى صيدناوى بيفرقوا فوقها فلوس :

وكانت التجربة الثانية .. فى حذاء ..

كنت أشترى أحذيتى .. من محل فى الموسكى لصاحب قديم هو يوسف سروة » تعود خالى أن يشترى لنا أحذيتنا منه منذ الطفولة .

والرجل طيب وصديق .. وأغلى حذاء عنده لا يتجاوز المائة وخمسين

قرشا .. محترم الشكل .. متين النعل يتحملنى عاما كاملا .. يزيد الى عامين .. إذا ركبت له طولونة حديد .. ونصف نعل .

ولم أجد قط ما يدعونى الى تغيير محلى المختار للأحذية .. حتى وجدت صديقى الشاذلى يجلس وقد وضع ساقا فوق ساق بطريقة وقحة تكاد تضع الحذاء فى وجوه الناظرين ..

وقلت له ناهرا :

- ما تلم رجليك .. مالك مادد جزمتك فى وش الناس ..

وبمنتهى الهدوء أجاب :

- أصلها بخمسة جنيه ..

وأعدت النظر فى الحذاء .. وقلت فى دهشة :

خمسة جنيه .. اشمعنى ..

- جزمة انجليزى .. تعيش معاك خمس سنين ..

- وتعيش خمس سنين ليه ؟ ما تشترى بالخمسة جنيه خمس جزم وتلبس كل سنة جزمة جديدة .

وفعلا لم أجد هناك ما يدعو الانسان قط الى أن يشترى حذاء بخمسة جنيهات .. ومع ذلك استمرت المناقشة بيننا أسبوعا .. انتهت بنا الى أن يقنعنى بضرورة تجربة الحذاء ذى الخمسة الجنيهات .. ولو مرة واحدة فى حياتى ..

وذهبت الى محل فردناند .. واشتريت الحذاء .. وفى طريقى الى البيت كان على أن أقوم بعملية الخصم التي تعودت إجراءها لتظهرنى بمظهر الشطارة ..

ولم تكن عملية الخصم هذه المرة .. بعملية عادية .. فقد تعودت الا يتجاوز ثمن حذائى بأية حال .. المائة وخمسين قرشا .. ولم يكن مفروضا ابدا أن أشترى حذاء بخمسة جنيهات .. مهما كان الأمر .. لأن الجنيهات الخمسة يمكن أن تشترى ثلاثة أحذية على الأقل ..

وكان على اذن .. أن أقوم بعملية خصم ضخمة .. انتهت بى .. بعد رؤية وتفكير الى أن تصل الى ثلاثة جنيهات ونصف .. أى أن أتقدم بالحذاء المحترم .. وكأنه حذاء عادى .. لا يزيد ثمنه على المائة وخمسين قرشا .. ولا أعتقد أن هناك مشقة فى ذلك .. فالحذاء في مظهره لايختلف كثيرا عن بقية زملائه من الاحذية العادية التى تعودت أن أشتريها .. فهو ذو نعل ووجه .. وليس على رأسه - كما يقولون - ريشة .. وزوجتى ليست خبيرة فى شئون الأحذية .. ولا أظنها ستكتشف بسهولة جنسية الحذاء .. فتعرف أنه انجليزى أو فرنساوى .. فكله عندها حذاء ..

وهكذا دخلت بالحذاء الممتاز .. وكأنه حذاء عادى .. وعندما سئلت عن ثمنه قلت ببساطة مائة وخمسين قرشا . وأجابت زوجتى بنفس البساطة « مش بطال » وأجابت حماتى اجابتها التقليدية « انه فى صيدناوى بنصف الثمن » .. أى بخمسة وسبعين قرشا .

وحمدت الله على الستر .. ومضت مدة وأنا أتمتع بطيب المداس فى الخارج وحسن السمعة فى الداخل .. أو بالعياقة والقنزحة فى الشارع .. والنصاحة والشطارة فى البيت .. حتى فوجئت ذات يوم بما فضح أمرى وكشف خدعتى ..

كنت أجلس فى البيت وسط شلة من الضيوف بينهم أحد الأصدقاء وزوجته .. وبحسن نية وبدون خوانة وضعت ساقا على ساق .. وفجأة وجدت زوجة صاحبى تحملق فى الحذاء .. ثم تقول معجبة :

- الجزمة دى كويسة ..

وتوجست من اعجابها خيفة .. ولعب الفار - كما يقولون - فى عبى .. ونظرت اليها فى حذر .. وبدأت استعرض لنفسى شجرة جدودها خشية أن يكون بينهم جزمجى أورثها من خبرته ما تستطيع به كشف أمر الحذاء الفاخر .

وكان أول ما فعلت أن أنزلت ساقى من فوق الساق الأخرى .. وخفضت حذائى وجلست متواضعا حتى أبعد عن عينيها الحذاء .. ولكن الماكرة عادت

تفحصه فى اعجاب ثم تساءلت ببساطة :

- جبته منين ؟

ادعيت أنى لم أسمع .. وتشاغلت عنها بحديث الى زوجها لا يمت الى حديث الأحذية بصلة ..

والتقطت أذنى رد زوجتى عليها وهى تقول فى ثقة :

م الموسكى .. !

واسترقت البصر الى صاحبتها فلم أجد على وجهها سيماء الاقتناع وحاولت أن أسوقها الى حديثنا لأبعد بها عن مسألة الحذاء ولكنى وجدتها مستمرة فى فحصه .. كأن الحجرة قد خلت الا منه .. ثم سمعتها تتمتم قائلة :

- عجيبة .. هو فيه فى الموسكى جزم كويسة كده ؟

ووجدت نفسى أرد عليها فى غيظ محاولا انهاء الموضوع الذى احسست أنه متجه اتجاها خطرا :

- وليه لأ ..؟

- أصلها باين عليها غالية .. أنت جبتها بكام ؟

يا نهار أسود ! !

ووجدت نفسى قد سقتها الى السؤال الذى حاولت جهدى أن اتجنبه .. ولم أجد بدا من الهروب السريع بالانهماك فى حديثى مع زوجها .. وكأنى لم أسمع سؤالها بالمرة ..

ولكنى .. كما هى العادة .. التقطت اجابة زوجتى نيابة عنى وسمعتها ترد عليها فى ثقة :

- مائة وخمسين قرشا !!

وأحسست بصاحبتها الخبيثة تحملق فى .. وكانت تعرف محاولاتى السابقة .. فى تخفيض أسعارى للظهور بمظهر الشطارة .. وفجأة سمعتها

تنفجر ضاحكة وتسائل زوجتى :

- هو قالك كده ؟

- آه .. تعجبك .. ؟

- من جهة تعجبنى .. تعجبنى .. بس حكاية الماية وخمسين قرش دى مش معقولة !

ونظرت اليها فى غيظ محاولا اسكاتها :

- معقولة .. مش معقولة .. أهى بمية وخمسين قرش وخلاص ..

وعادت صاحبتنا تضحك وهى تقول :

- مية وخمسين قرش ايه يا سعادة البيه ؟ حاتضحك عليه أنا . دى جزمة انجليزى ماتقلش عن خمسة جنيه .. !

يا بنت الصرم !! هكذا مرة واحدة .. والله لو كان أبوك جزمجيا .. ما استطعت أن تقدرى السعر بمثل هذه الدقة .

وكان على الا استسلم فقلت فى إصرار :

- قلنا بمية وخمسين قرش .

- وحياة راس بابا ما تقل عن خمسة جنيه .

- الله .. وايه اللى دخل راس بابا فى جزمتنا ؟ !

وبدأت زوجتى تتدخل فى الأمر فتساءلت :

بخمسة جنيه .. والا مش بخمسة جنيه ؟ قول الحق ..

ولم املك الا الاعتراف .. فقلت مستسلما :

- بخمسة جنيه .. بس دى آخر مرة يزورونا .. وأنا جايب جزمة جديدة ..

ومرت التجربة بسلام .. ولم أحاول أن أخادع فى أسعار الاحذية بعد ذلك .. لأننى لم أكرر شراء الاحذية الانجليزى .. لسبب بسيط هى أنها لم تعش

خمس سنوات ، ولا اربع سنوات ، ولا ثلاث سنوات .. بل انتهت فى نهاية العام .. كما ينتهى كل حذاء من الموسكى بمائة وخمسين قرشا .

واستمررت فى عمليات الخصم .. أظهر شطارتى دون أن ينكشف أمرى .. حتى حدثت الحادثة التى جعلتنى أكف عنها نهائيا ..

ذهبت لشراء بعض الصينى من محل فى شارع الأزهر ووجدت هناك أصنافا ممتازة مستوردة من تشيكوسلوفاكيا .. ولم أكن أحتاج الا لبضعة أشياء محدودة لا يزيد ثمنها عن جنيهين ولكن جودة البضاعة ورخص السعر .. (أو هكذا خيل الى) دفعنى الى أن أشترى صنفا وراء صنف حتى بلغ ما انتقيته فى النهاية بما يزيد على الخمسة عشر جنيها .

ولففت الحمل .. وذهبت الى البيت .. وكنت أعلم السخط الذى سأقابل به .. لأنه لم يكن مطلوبا منى أن أحضر كل ما أحضرت .. أولا لأنى خائب فى الشراء (رغم كل الخداع الذى أقوم به) وثانيا لأنهم ليسوا فى حاجة الى شىء ما أحضرت .

ولم أجد هناك ما يبرر شرائى لكل ما اشتريت وما يهيىء له قبولا حسنا سوى أن أوهمهم أنها صفقة هائلة وأن أخفض لهم السعر الى النصف .

ووضعت البضاعة امامهم .. وقلت لهم انى اشتريتها من أوكازيون .. وأن ثمنها لا يزيد عن عشرة جنيهات .. ورغم ذلك لم أقابل بالحماس الذى كنت اتوقعه .. وقيل لى ان هذا اسراف لأنهم ليسوا فى حاجة الى شىء مما احضرت .

وتصادف وجود ضيفة فى البيت .. كانت تجهز لابنتها .. فلم تكد تبصر الصينى وتعرف الثمن .. وترى استياء أهل البيت من الصفقة حتى تطوعت بأخذها ..

وأسقط فى يدى .. فأنا أقوم بعمليات الخصم الوهمية لنفسى .. لأنه منه واليه .. اما أن أجرى الخصم للغير .. واما أن أشترى البضاعة بخمسة عشر جنيها ثم ابيعها للغير بعشرة جنيهات .. لكى تقول عنى أنى شاطر .. فهذا هو

الجنون المطبق .

ولم أجد بدا من أن أسحب زوجتى واعترف لها بالموضوع .. ولكن الموقف كان حرجا .. ولم يكن الخروج من المأزق بالمسألة السهلة ولا سيما أن الضيفة لم تكن من النوع الذى يسهل رفع الكلفة معه .. بل كانت من النوع الغبى القماص وكان يحتمل أن تفهم اعترافى على أنه محاولة للربح منها .. أو تفهم تراجعنا عن اعطائه لها بأنه استخسار فيها ..

وهكذا لم نجد بدا من اعطائها الصفقة بالعشرة جنيهات ..

وغرمت ببساطة خمسة جنيهات .

ومن يومها .. لم أحاول أن أعيد عملية الخصم أبدا ..

في الميكروفون

أمفروض على الأديب أن يجيد مواجهة الجماهير ويتقن التحدث اليهم أم أن مهمته لا تتعدى جهده المبذول في برجه المغلق المحتجب وراء ستار من الكتب والصحائف تحجب شخصه عن الجماهير وتسمح لأفكاره بالانطلاق بينهم كأنه مدفع في حصن أو مصباح في فنار .

ان لدينا في مصر نموذجا لكلا الأديبين .. الأديب الذى يواجه الجمهور كأفضل ما تكون المواجهة ، والتحدث كأشد ما يكون الحديث سحرا .. ثم نقيضه .. الأديب القابع في برجه .. المحتجب وراء أوراقه .. الذى لا يفتن الا بقلمه .. ولا يسحر الا بكتابته ..

والأول .. هو الدكتور طه حسين .. والثاني .. هو توفيق الحكيم.. ولقد رأيت في مؤتمر الادباء كيف يواجه طه حسين الجماهير .. مرفوع الهامة .. طلق اللسان .. واضح النبرات .. عذب الصوت .. سليم المنطق .. قوى الحجة .. ملموم اطراف الحديث .. يبدأ بالمقدمات .. ثم يسوق الحجج .. وينتهي الى النتائج .. بلا شرود ولا خروج .

والذى لا جدال فيه أن طه حسين أشد تأثيرا بحديثه منه بكتابته .. وأنه يمسك بتلابيب المستمع اليه فلا يدعه يغفل عنه أو يشرد منه لحظة واحدة . وأني لأذكر خلال غداء جمعنا مع فخامة رئيس الجمهورية السورية عقب محاضرة الدكتور طه حسين التي القاها في بلودان وقد جلس بجوارى الأمين العام للديوان الجمهورى وأخذ يثنى على الدكتور طه وعلى سحر حديثه ثم

سألنى عن رأيى فى المحاضرة فقلت له باختصار :

لقد سببت لى ارقا .. فلم أظفر بلحظة نوم .. أو سرحان .. خلال الاستماع اليها ؟ !

وضحك الرجل .. وقال لى هذا خير ثناء على المحاضر والمحاضرة .. وروى لى محاضرة استطاع صاحبها أن يغرق مستمعيه فى سبات عميق من أول المحاضرة الى آخرها ، وعندما سأله فى نهايتها عن رأيه فيها .. أنبأه بأنها .. مريحة جدا !

أما توفيق الحكيم .. فيمثل النوع الثانى من الأدباء الذى يكره مواجهة الجماهير .. والتحدث اليها .

ولست اشك أن عدم قدرة توفيق الحكيم على مواجهة الجماهير ناتجة عن رهبة وخشية وعدم تعود وقلة مران .. أكثر منها عجز وعدم قدرة .. لأن توفيق من أسلم الناس منطقا وأقواهم حجة .. وأشدهم تركيزا .. وأسرعهم وصولا الى الهدف الذى يقصده .. بشرط ألا يشعر أنه مراقب .. وأن الابصار تتطلع اليه .. وأنه محاسب على كل لفظ ينطق به ، مؤاخذ على كل حركة يأتيها .

فهو إذا جلس اليك على غير معرفة .. وجدت منه ميلاً الى الصمت فإذا تحدث ففى تردد ولجلجة .. لا يمكن أن تتوقعها من توفيق الحكيم الذى رسمت له من أفكاره ومنطقه وفلسفته وذكائه وفكاهته وسخريته صورة رائعة لا تتفق البته مع صورته كمحدث .

فهو لا يكاد يحس أنك تنصت اليه انصات مراقب محاسب مكتشف .. حتى يصبح منك على حذر .. ويحيط نفسه بسياج من الصمت والتحفظ ويخفى عنك معالمه ويطمس سماته .

فإذا ما جلس الى أحد خلصائه - وهم قلة تعد على أصابع اليد زال عن نفسه الاحساس بالقلق .. وانطلق فى حديثه انطلاقا قد يبلغ به - لولا متعة الحديث وقيمته - حد الثرثرة .

وأذكر أنه جلس يتحدث الينا ذات ليلة فى نادى القصة .. ولم يكن بيننا غريب يخشى توفيق الحكيم مراقبته .. فانطلق فى الحديث ما يقرب من ساعتين .. بمنطقه السليم وفكاهته اللطيفة وآرائه القيمة .. وعندما انتهى من الحديث اقبل أحد الزملاء الصحفيين يسأله مقالا لجريدته .. ورغم أن الزميل عرض ثمنا طيبا للمقال فقد اعتذر توفيق الحكيم بأن ليس لديه ما يقوله فى المقال ودهشت وقلت له أن الحديث الذى القاه علينا يمكن أن يفصل منه عشر مقالات .. وحسبت ثمن الحديث باعتبار أن المقال سعره ٢٥ جنيها فاتضح له أنه تحدث بمائتين وخمسين جنيها .. وقلت له أنى سأحضر فى سهرتنا القادمة كاتبا أو جهاز تسجيل لتسجيل حديثه ثم تفصيصه وبيعه بالمقالة بشرط أن أستولى على عمولة محترمة . ولكنه أكد لى أنه لو أحس أن هناك من يسجل كلامه فسيفقد قدرته على الحديث وسيجىء مفتعلا متكلفا ..

ويبدو لى أن معظم الكتاب .. اقرب بطبيعتهم الى توفيق الحكيم .. فهم أشد إحساسا بالطمأنينة .. فى خلوتهم مع « أوراقهم » وقلمهم .. وهم فى حالتهم تلك يكونون أقدر على .. الانطلاق .. والانفعال .. والتأثير فى نفوس الغير .. منهم فى مواجهة الجماهير .

وقد رأيت احسان عبد القدوس في مؤتمر الادباء صامتا .. لا يفعل اكثر من أن ينفخ أو يزفر .. أو يدخن .. وأنا أعرف أن صمته لم يكن عن زهد فى الكلام .. أو عدم انفعال بما يقال .. لأنى واثق أن هناك أشياء كثيرة .. كان احسان يجب أن يقولها .. ورغم ذلك فقد صمت .. ولم يحاول أن يخرج ليواجه جمهور المؤتمر .. ويحدثهم بما يدور فى رأسه .. لأنه وجد فى المواجهة أمر لم يعتده لأنه تعود مواجهة الجماهير وراء حجاب من صفحات « روزا اليوسف » أما المواجهة المباشرة ففيها مشقة على نفسه .. لا حاجة به الى أن يتكلفها .. لا سيما وهو يعلم .. أن المواجهة غير المباشرة .. هى عمله الاصلى .. وأنها معدة أمامه يستطيع فى كل وقت أن ينفس بها عما فى صدره .

ولم يكن أنيس منصور .. بأكثر من احسان كلاما .. ولم يحاول أن يواجه فى المؤتمر أكثر من الشيخ نعمان أديب اليمن .. وأن يتبادل وأياه « والله

لقد ضللت » « والله لقد فضحتنا » وأنكر أنى رأيت أنيس يقفز من فراشه فجأة ويقول لى فى حماس :

- اسمع .. أنا حارد على محمود العالم .. أنا حاقول كذا .. وكذا ..

واندفع يردد لى ما ينوى أن يقوله فى الرد على العالم وأخيرا سألنى :

- ها .. ايه رأيك .. أرد ؟

وأجبته بهدوء :

- رد .. بس ما تتهورش ..

- أنا مش حاتهور .. أنا حاقول .. كذا .. وكذا ..

واندفع مرة أخرى يردد لى ما سينوى قوله :

ثم عاد يسألنى مرة ثانية :

ها .. أرد ؟

- يا أخى قلت لك رد ؟

وبعد لحظة وجدته يقبل على ويسألنى :

- ما تقوللى بقى .. أرد ولا مردش ؟

- ما قولتلك رد .. أقولك ايه اكتر من كده ..

وفى طريقنا الى اجتماع المؤتمر وجدته يهز رأسه ويقول ببساطة :

واللا أقولك .. أنا مش حارد .. أنا حاكتب اللى عايز أقوله .

وأنا أعرف أنه لم يكن سيرد .. رغم أنه كان يريد أن يرد .. ورغم أنه كان يعرف جيدا ما يريد أن يرد به .

وكنت أعرف كذلك أنه يسألنى لأقول له لا ترد فأمنحه سببا لعدم الرد يريح به ضميره .. ويعتذر به لنفسه .. ولكننى لم أمنحه اياه .. وتركته .. ليعلن ببساطة أنه يفضل أن يكتب ما يريد .. بدل أن يقوله .

وانيس منصور .. كان مدرسا بالجامعة .. واجه آلاف الطلبة بضع سنين فى محاضراته .. وهو من أطول الناس لسانا - بعدى - فى كتابته .. ومع ذلك فضل أن يواجه الجماهير من وراء صحائفه .. بدل من أن يواجهها مواجهة مباشرة .

ومحمود العالم ألقى فى محاضرته بطريقة ممتازة .. ومع ذلك فقد قال لى فى نهاية المحاضرة « لقد نسيت بعض أسماء .. لأنى كنت مرتبكا جدا » .

وكان أجرأ الكتاب فى الحديث يوسف ادريس .. قال كل ما فى نفسه .. وباللغة العربية .. ومرتين .. مرة بالياء .. ومرة بالواو .. قال .. الواقعيين .. ثم الواقعيون .. من باب الاحتياط .. وكان علينا أن نختار الصح .. منهما .. أنا شخصيا .. لم أعرف ابدا ايهما الصح ..

وتحدث عبد الحليم .. بطريقة متزنة هادئة .. لست أعلم .. هل أخفت وراءها ارتباكا .. أم ثباتا .. ولكنه كان سليم الرأى والمنطق واللغة .

والقى رامى بعض قصائده .. وهو من أجمل الناس روحا وقلبا .. وهو نموذج للنوع الآخر من الادباء .. القدير على مواجهة الجماهير .. لقد منح القاؤه شعره جمالا وروعة ..

ولم تتكلم أمينة السعيد فى المؤتمر .. لم أرها وهى تواجه الجماهير .. وإن كنت اعتقد من براعة حديثها وسط شلل الأصدقاء .. أنها لن تعجز عن مواجهتهم .

والقت الشاعرة العراقية نازك الملائكة بعض قصائدها .. فخذل القاؤها شعرها .. وخذل المستمعون فيها وفيه .. لقد منحها المستمعون من الترحيب وحسن الاستقبال قبل الالقاء ما كان خليقا بأن يمنحها الثقة التى تزيل اضطرابها .. وبدأت حديثها بالاعتذار بالزكام .. واعتقد أن الجمهور قد قبل زكامها ببساطة .. ولكن الشىء الذى لم يقبله هو ارتباكها المفرط .. الذى تركها تلقى قصائدها .. وكأنها تلميذ فى الروضة .. يكاد يتهجى .. وعندما انتهت من القائها أغلقت الديوان وهبطت تتعثر كأنها ارتكبت ذنبا ..

ولقد كان شوقى .. الشاعر .. أسوأ من يلقى شعره .. وكان أحد شعراء العرب وأظنه البحترى .. يطوف على الناس بعد أن ينظم قصائده .. ليحفظوها .. ثم يلقوها عليه .. فيستمتع بسماعها ..

بقى هناك مخلوق .. لم أتحدث عنه .. وأنا أدرى الناس به .. وهو أنا .. أنا .. باختصار .. اسوأ من واجه الجماهير .. فأنا أحب أن أجلس وارقب .. لا أن يتفرج الناس على .. ويرقبونى ..

ولقد حاولو قبل المؤتمر أن يورطونى فى محاضرة فرفضت رفضا باتا .. لأنى لا أحب مواجهة الجماهير . ومع ذلك لم نكد نصل الى دمشق حتى وجدت نفسى قد تورطت فجأة فيما هو شر من المحاضرة .

لقد طلبوا منى أن أقول كلمة الوفد المصرى أمام رئيس جمهورية سوريا .. وقلت لنفسى جالك الموت يا تارك الصلاة .. وقلت لرامى أنت أكبرنا سنا .. فقل أنت الكلمة ..وهز رامى رأسه بعنف وقال .. أنا لا أقول الا شعرا !!

ولم يكن بالطبع مطلوب من الوفد أن تكون كلمته « هلت ليالى « القمر » أو « غلبت أصالح فى روحى » ووجدت نفسى أمام الأمر الواقع .. فكتبت الكلمة .. وكانت كتابتها أيسر ما فى الأمر .. وخشيت أن أخطىء فى التشكيل فطلبت من عبد الحليم عبد الله أن يشكلها بالأحمر حتى يكون الشكل واضحا .. وجلست أهون المسألة على نفسى قائلا أنى سأقرؤها من الورق .. ولن تزيد المسألة على بضع دقائق ..

وبدأ الحفل .. جماهير .. وميكروفونات وأضواء كاميرات .. ورئيس جمهورية .. ورئيس وزراء .. ووزراء .. وأدباء وهيصة ..

وبدأ رؤساء الوفود يتوالون على المنبر ويصيحون ويخطبون وأنا سارح .. أردد لنفسى « يعنى كان مالى أنا ومال الحاجات دى .. ذنبى إيه أنا اتورط الورطة دى .. » .

وأقسمت فى نفسى أن يكون هذا هو آخر مؤتمر أدباء أحضره .. يكفى

جدا .. أن أجلس على مكتبى وأكتب لا يرانى أحد .: ولا أرى أحدا .

وطاف بذهنى .. أن أهرب .. أجرى فى المؤتمر .. ولكن قبل أن تتبلور الفكرة فى ذهنى دعيت الى الميكروفون .

ووضعت بوزى فى الميكروفون .. ولم أنظر الى أحد .. وهات يا قراءة ..

وسمعت الناس يصفقون .. لم أدر لـم .. واندفعت فى القراءة .. لم أبادلهم اعجابا باعجاب .. فقد كنت غير معجب بهم البته .. كان كل ما يهمنى أن أنتهى من قراءة الخطبة .. وأفر من نظراتهم المسلطة على ..

وأخيرا .. وصلت الى « والسلام عليكم ورحمة الله .. وسمعت التصفيق ثانية ..

وعدوت من المنصة .. واندسست ثانية بين الصفوف .. وتنفست الصعداء ..

ان مواجهة الاديب للناس مشكلة كبرى .. أنه خلق ليراقب .. لا لكى يوضع تحت المراقبة ؟ !

معذور توفيق الحكيم .

ليلة فوق حمار

أيقنت هذا الاسبوع أن الحمار حيوان ممتاز فى مركزه لدى ابن آدم .. وفى علاقته الذهنية والقلبية به .. وقد أثبتت لى الأدلة والقرائن .. أن هناك استلطافا لا شك فيه بين الانسان والحمار .. وأن الانسان عندما يترك على سجيته ويرفع عن نفسه حجاب الكلفة .. فإنه لا يتورع عن اعلان عاطفة الاستلطاف التى يكنها للحمار .

وجحا وحماره .. دليل قديم .. على مابين الاثنين من علاقة ود .. وحوادثهما معا ، تشهد بمدى تقدير الفيلسوف الضاحك لحماره ، واعجابه به .

وحمار الحكيم .. دليل عصرى على استمرار علاقة الود والتقدير .. وقد خيل الى فى بادىء الأمر أن علاقة التقدير هذه بين الحكيم وحماره علاقة على الورق .. وأن الحمار شخصية وهمية ابتكرها الحكيم .. ومنحها من المزايا .. ما هيأ له الكلف بها والتقدير لها ..

كنت اعتقد ذلك ، حتى ثبت لى أن ولع الحكيم بالحمار .. ولع حقيقى ، لا تصنع فيه ولا ادعاء .. عندما صعد الى سكرتيره الزميل محمود يوسف ينبئنى أن توفيق الحكيم ، حمله رسالة الى ، وأنه حائر كيف يبلغها لى .

وبعد تردد . أنبأتى بمضمون الرسالة .. وهو أن توفيق الحكيم عثر على حمارين صغيرين ، أو على وجه ادق حمار صغير وسيسى فى حجم الديك الرومى وهو فى طريقه الى المنزل ، وأنه أوقف العربة وعاد اليهما ووقف

يتأملهما مليا فى اعجاب وأنه فاوض صاحبهما فى شرائهما وأن المفاوضة لم تسفر عن اتفاق ، فقرر توفيق الحكيم أن خير طريقة للحصول على أحدهما أو على كليهما ، هو أن اشتريهما .. أنا !!

وسألت محمود يوسف فى دهشة :

- اشتريهما أنا ؟ !! أنا أشترى حمارين !!

وبدت لى المسألة مذهلة .. فأنا لم يسبق لى هواية الحمير أو الاتجار بها ..

وتخيلت منظرى وأنا مقبل على البيت بحمارين .. وتصورت الاستقبال الذى يمكن أن أستقبل به فى البيت .. فلم أملك الا أن أنفى الخاطر عن نفسى بشدة .. وأبدى استنكارى لقرار الحكيم الخاص بتوكيلى فى عملية شراء الحمارين .

وبدا للاخ محمود يوسف أن يخفف لى وقع المسألة .. وييسر لى تنفيذها .. فعرض على أن يبقى الحماران فى حديقة المجلس !

وعدت اتصور الحمارين يرتعان فى الحديقة ، ثم تزداد بهما ألفة المجلس ، فيطوفان بأروقته ، ويجلسان فى حجراته .. والمصورون الصحفيون يلاحقونهما .. والأضواء تشرق وراءهما .. وصورهما تحتل الصحف .. وشهرتهما تطبق الآفاق . وتخيلت التشنيعات التى يمكن أن تصاحبهما .. والتى يمكن أن يضيع المجلس بعدها هدرا .. واندفعت اهبط الدرج الى حجرة الحكيم ، حتى أوضح له خطورة رغبته .. وأزيل من ذهنه كل أمل فى شراء الحمارين .. وأقطع عليه كل علاقة ود .. وصلة استلطاف ، يمكن أن تقوم بينه وبين الحمير .. على الاقل طيلة مدة وجوده بالمجلس .

ولقينى الحكيم ضاحكا .. وأخذ يحدثنى عن الحمارين ولطف شكلهما ، وخفة دمهما .. وأصر على أن يرينى اياهما .

وبعد انتهاء العمل .. اقلتنا العربة .. الى مربط الحمارين .. حيث وقفا وصاحبهما وراء نادى الجزيرة .

ووقف توفيق الحكيم يتأملهما فى اعجاب .. ويشرح لى مزاياهما .. وبدأ يركز اهتمامه فى اصغرهما سنا وأضألهما حجما .. جحش اسود لا يتجاوز حجمه حجم الكلب .. مع رأس كبير لا تكاد تقوى على حمله سيقانه !

وبدأت المساومة من جديد .. وأخذ الحكيم يقلل من مزايا الجحش .. ويحقر من شأنه .. ويعدد مساوئه ثم سأل صاحبه عن آخر سعر يريده ، فطلب ثلاثة جنيهات . فنقل الحكيم نظره بين الرجل والجحش ، وقال فى استخفاف :

- ثلاثة جنيه ايه .. هو قادر يمشى ؟

ورد عليه الرجل مستنكرا :

- قادر يمشى ؟ يا بيه دا جاى من شبرا البلد لغاية هنا ماشى .

وبدا لى كان الحكيم قد اقتنع باجابة الرجل .. وأن الحمار اثبت جدارته وكفاءته بالمشوار الذى قطعه من شبرا الى الجزيرة .. سيرا على الاقدام .. وبدا الحكيم يدخل فى التفاصيل ..

فسأل الرجل قائلا :

- ودا بياكل ايه ..

وبمنتهى البساطة اجابه :

- الصبح .. تديله رطلين لبن .. والظهر .. تد ..

- طيب بس .. بس كفاية .

وقبل أن يسمع بقية برنامج طعام الحمار .. كان قد غادر الرجل وجرى الى العربة وهو يردد :

- دا يعنى عايز له ميزانية أكل لوحده .. خليه لما يكبر شوية .. وسارت بنا العربة .. والحكيم يتلفت وراءه مودعا الحمار .. وقد بدا عليه اسف غير متكلف .. وضيق غير مدعى .. وهو ينظر الى وكأنه يستنجد بى .. وكان حقوق الزمالة والصداقة تحتم على أن أيسر له الأمر .. فأتكفل بتوريد رطلى اللبن يوميا - على سبيل المعونة الاقتصادية - لارضاع الحمار .

ومرت الحادثة بسلام .. وأيقنت .. بعد الفرقة التى أوقعتها بين الحكيم والحمار الرضيع .. وشعور الحرمان الذى تسببت له فيه .. بأن علاقة الود والاستلطاف بين الانسان والحمار .. علاقة وثيقة أكيده ..

ولم تكد تمضى بضعة ايام .. حتى سمعت ما أكد هذا اليقين .. وما جعلنى أومن بأن علاقة الود هذه .. غير مقصورة على الفلاسفة والمفكرين .. وإنما هى تمتد الى بقية عباد الله .. عندما ترفع عن نفوسهم حجب التكليف .. وينطلقون على سجيتهم يفعلون ما يشتهون .. ويفصحون عما يسرون .. ويعلنون عما يضمرون .

كان دليل الصداقة فى هذه المرة .. صديقا قديما .. جرت سيرته بيننا .. وقد ضمتنا صحبة من الاصدقاء .. أخذنا نتحدث عن ذكريات الصبا .

وذكرناه فيمن ذكرنا .. وكنت أعرفه منذ الدراسة .. كان أخف الناس دما .. وكنت اعرف مقعده المختار بعد التخرج فى بار سيسيل .

وتحدث عنه صديق طالت زمالته له .. وأخذ يقص علينا كيف عمل واياه فى معسكر الدخيلة بالاسكندرية .. وكيف كانت سهراتهماتطول .. ويتركان العربات تعود الواحدة بعد الاخرى الى المعسكر .. حتى يظلا وحدهما بلا عربة ويضطرا الى العودة من الاسكندرية الى الدخيلة سيرا على الاقدام .. فيصلاها قُرب الفجر .. ويجدا أن خير طريقة ليقويا على مواصلة عملهما فى الصباح المبكر .. هو أن يلقيا بنفسيهما فى البحر .. لكى يفيقا ويتجدد نشاطهما .

وحدثنا الصديق عن سهراتهما فى بيت أم مارى ، وكيف كانت تأبى أن تفتح الباب قبل أن تتأكد من عدم وجود صاحبنا .. وكيف كان يختفى وراء الباب ليدلف كالفار بمجرد أن تفتحه .

وصمت صديقنا .. وسرح برهة ثم أطلق ضحكة قصيرة .. وبدأ قصته ..

ولأتركه يتحدث ، ليرويها كما رواها لنا ..

« كان الوقت قد تأخر .. ولم يبق لنا سوى العربة الأخيرة ، لكى تعود بنا الى المعسكر .. وكانت الشلة كلها قد عادت .. ولم يبق على البار سوانا .

وعندما حان موعد عودة العربة .. هز رأسه ببساطة وأجاب :

- سنأخذ العربة التى بعدها .

- هذه آخر عربة ..

- اتركها تعود .. سنتمشى !

ولكنى لم أكن فى حالة تشجع على السير ولا أظنه كان خيرا منى ، فجررته من ذراعه .. وكان أعجز من أن يقاوم .. ووضعته فى العربة .. وأمرت السائق بالسير .. ووصلت العربة الى المعسكر الذى اعمل فيه .. فهبطت منها . وأمرت السائق أن يوصله الى معسكره ثم يعود الى الجاراج .

وفى الصباح رأيت السائق مقبلا على .. أحمر العين .. وهو يكاد يتهاوى الى الارض من فرط الاعياء ..

وظننته محموما .. سألته فى دهشة عما به . فأجاب بأنه لم ينم ، وخشيت أن يكون قد وقع لصاحبى مكروه .. فسألته فى لهفة ألم يوصله ؟ فأجاب بأنه قضى طيلة الليلة فى ايصاله ، وأنه قد عاد الآن فقط ..

وبدأ السائق يوضح الأمر قائلا: أنه لم يكد يتركنى سائرا فى طريقه الى حجرة صاحبى ، حتى مر بحمار يقف على جانب الطريق .. ولم يكد صاحبى يراه حتى أمره بالوقوف ! وأصر على أن يركب الحمار .. وعبثا حاول السائق أن يفهم أن العربة أسرع وأكثر راحة .. وأن الوقت متأخر .. وأنه ليس هناك أبدا ما يبرر عودته على ظهر الحمار .

ولكنه كان قد صمم .. ولم يكن هناك جدوى من اقناعه .. وترك العربة .. واتجه الى الحمار فامتطاه.. ولم يستطع السائق أن يتركهما وحيدين .. وأحدهما حمار .. والثانى مبسوط .. ولم يستطع كذلك أن يترك العربة فى هذا الفراغ ، وفى هذا الوقت .. فاضطر الى أن يهبط من العربة ، ليقود الحمار .. ثم يترك الحمار ليعود فيلحق بالعربة .. وهكذا قضى الليل ..

وهو يتنقل بين الحمار والعربة .. وصاحبنا مستقر على ظهر الحمار .. مستريح أربعة وعشرين قيراطا .

وأخيرا وصل الى الميس ، وتنفس السائق الصعداء .. وقال له راجيا :

- اتفضل ياسعادة البيه .. احنا وصلنا .

ولكن سعادة البيه لم ينزل من فوق ظهر الحمار .. وأصر بمنتهى البساطة ، على أن يدخل الميس بالحمار .

والميس مرتفع عن الارض ببسطة لا تقل عن نصف متر .. والحمار لا يمكنه أبدا أن يصعدها .. وصاحبنا يأبى النزول ، ويصر على أن يوصله الحمار حتى باب حجرته !

ورجاه السائق عبثا .. وهو مصر على رغبته ، وأيقظت المناقشة بعض الزملاء .. وخرجوا من الميس ليروا المسألة فوجدوا صاحبنا على ظهر الحمار ، والسائق يحاول أن يغريه بالنزول .

ويئس الزملاء من اقناعه بالنزول .. فلم يجدوا وسيلة لانهاء الليلة على خير .. سوى أن يحملوه بالحمار ليضعوهما فوق البسطة ويجروا الحمار حتى باب حجرته ..

وتكاتف الزملاء مع السائق .. واستطاعوا بعد جهد شديد ، أن يحملوه بحماره ، ويقودوه حتى الباب .

وانتظر الزملاء أن يهبط من فوق الحمار .. ويدخل حجرته وفعلا هبط من فوق الحمار .. ودخل الحجرة .. ولكن .. ليس وحده .. بل ومعه الحمار !

أجل .. لقد أصر .. على أن لا يترك الحمار وحيدا في البرد والظلمة .. وصمم على أن ينام الحمار معه فى الحجرة ..

« يا سيدنا عيب .. كفاية كده .. ميصحش خش نام بقى » .

ولكنه رفض رفضا باتا .. وأصر على أن ينام الحمار معه !

وكان لا بد لهم أن يوافقوه حتى تنتهى الليلة على خير .

ودخل الحمار الحجرة .. وظل واقفا .. فظل صاحبنا واقفا .. بجواره .. يأبى أن ينام حتى ينام الحمار .

ولم يجد الزملاء بدا من السير فى المسألة حتى النهاية .. فهجموا على الحمار وطرحوه أرضا ، وأوثقوا أقدامه وأكرهوه على الرقاد ! وهنا رقد صاحبنا بجواره مرتاحا قرير العين ، ونام ليلته ملء جفونه .

أبعد هذا ود واستلطاف ، بين الانسان والحمار .

حالة غباء

كنا فى طريقنا الى الأوبرا لنشاهد فرقة الفنون الشعبية المصرية وسادت بيننا لحظة صمت ، شرد خلالها الأستاذ توفيق الحكيم .. ثم فاجأنى بقوله :

– تعرف أن الانسان بيصاب بعض ساعات بحالة غباوة عجيبة !

وكنت أعرف هذا .. أعرفه على الأقل فى نفسى .. ولكنى لم أكن أعرفه فى توفيق الحكيم .

ومرت بخاطرى فى لمح البرق .. حادثة غباوة وقعت فى إحدى ساعات التجلى التى تحدث عنها توفيق الحكيم .

وقعت الحادثة فى صباى .. أو على الأصح في طفولتى .. وأنا لم أزل بعد فى العاشرة .. وما زالت العائلة تذكرها حتى الآن .. وتذكرنى بها كلما بدت على مخائل نجابة .. أو بدرت منى بوادر ذكاء .

وأقربها منذ بضعة أسابيع عندما حضر الى أخى محمود ليذكرنى بها ، بعد أن قرأ فى الجمهورية خبرا صغيرا في باب « كل يوم » أن أحد كبار الكتاب قال عنى أننى أذكى انسان فى الشرق الأوسط . ولم أكن بالطبع مسئولا عن خطأ الكاتب الكبير وخديعته فى وحسن ظنه بى .. ولا كنت أعرف حتى من يكون ، ولا سبب وهمه فى ذكائى بل أخذتها على أنها تشنيعة من محرر باب كل يوم .. واكتفيت بالصهينة .. وبترديد قول القائل « لا يغلبن جهل الناس بك علمك بنفسك » .

ومع ذلك لم يسلم الأمر ممن يذكرنى بغبائى .. أو بحالات الغباء التى أصاب بها .. والتى لا يمكن أن تلتقى مع حسن ظن الكاتب الكبير بى .. وحمل الى أخى محمود جريدة الجمهورية وأشار الى الخبر ثم تساءل متخابثا :

- فاكر حكاية عبد الحليم الدكر ؟

وأجبته ضاحكا :

- فاكر ...

وعبد الحليم الدكر .. مقاول .. أو هكذا منذ ثلاثين عاما .. وقصتى معه ، التى يدللون بها على غبائى ، هو أنه زارنا مرة للاتفاق على عملية لا أذكرها بالضبط .. ويبدو أنه لم يحدث اتفاق بينه وبين أهل البيت فخرج والمسألة ما زالت معلقة .. فطلب منى بعد أن خرج أن ألحق به لأبلغه شيئا .. أغلب الظن أنه زيادة فى السعر المعروض أو شىء من هذا القبيل ..

وكان المقاول يصطحب انسانا لا أعرف من يكون .. قد يكون مهندسا ، أو قد يكون أحد معاونيه .. وكان المطلوب منى الا ابلغ المقاول الشىء المطلوب إبلاغه الا بعد أن يفارقه .

ولم تكن المسألة برمتها تعنى لدى شيئا .. لا الموضوع ولا المقاول ولا صاحبه .. كنت اعرف أن المطلوب منى فقط هو أن الحق بالمقاول وأبلغه كلاما بعد أن ينصرف عنه صاحبه .

وخرجت وراء المقاول .. وكانت الساعة حوالى الخامسة بعد الظهر .. ولم يكن مفروضا أن تستغرق المهمة أكثر من بضع دقائق ..

وعندما عدت الى البيت .. كانت الساعة قد بلغت الثامنة .. ووجدت البيت مقلوبا..وأخوى قد انطلقا للبحث عنى..والبلاغات عن غيابى توشك أن ترسل الى اقسام البوليس .. والبحث عنى يوشك أن ينتقل من شوارع روض الفرج .. الى الاسعاف ومشرحة زينهم .

وقوبلت بضجة .. وصاح الجميع بى :

- كنت فين .

وأدهشتنى ضجتهم وقلت لهم متسائلا فى برود :

- انتوا مش بعتونى ورا المقاول ؟ .

- أيوه ..

- مش قلتولى ماتكلموش الا لما يسيبه الراجل اللى معاه ؟

- ايوه ..

- طيب أهو لغاية دلوقت ما سابوش !!

وفعلا .. وقف الرجل مع المقاول على ناصية الشارع يتنافسان . ووقفت انتظر انتهاء المناقشة وانصراف الرجل .. وبعد نصف ساعة وجدتهما يتصافحان فأحسست بالفرج بعد طول انتظار .. ولكنى وجدتهما يتحادثان برهة .. ثم يتأبط كل منهما ذراع الآخر ويسيران تجاه دوران شبرا ..

وسرت وراءهما .. منتظرا افتراقهما حتى أبلغ المقاول ما اريد .. ولكنهما بدل أن يفترقا .. استقر بهما المقام على مقهى فى شارع شبرا .. ووقفت على الرصيف الآخر أرقبهما وهما يدخنان الشيشة فى استمتاع وتمهل .

وأخيرا .. أخيرا جدا .. نهضا .. وانتظرت أن يودع كل منهما الآخر ويفترقا .. ولكنهما عاودا التأبط والسير فى شارع شبرا ..

وكأى مخلوق امين مطيع..سرت وراءهما..كثيرا؟..حتى محطة مصر.

وعبرا كوبرى شبرا .. وعبرته وراءهما .. وأنا أسائل نفسى : متى ينويان الافتراق ..

وفى ميدان المحطة وقفا على محطة الترام .. ووجدت الفرج يوشك أن يحل .. وتوقعت - أو تمنيت على وجه أدق - أن يركب الرجل الترام ويترك لى المقاول أخيرا .. لأبلغه الرسالة .

وحضر الترام .. وركب الرجل .. وبمنتهى البساطة ركب وراءه المقاول ..

وتحرك الترام .. وأنا انظر الى الاثنين فى يأس .. ثم عدت أدراجى أتمشى فى شارع شبرا .. حتى وصلت الى البيت فى روض الفرج ..

ولست أدرى حتى الآن .. أكنت غبيا الى الحد الذى وصمونى به .. أم أن أى انسان فى موضعى كان سيتصرف نفس التصرف !

مر كل هذا فى ذهنى مرور البرق .. وتوفيق الحكيم ينتظر منى أن أعلق على ملاحظته .. عن حالات الغباء التى يصاب بها كل انسان .

وأجبته ببساطة :

— معاك حق .. لكن أنت بتجيلك الحالات دى ؟

فهز رأسه وأجاب :

— أقربها .. الجمعة اللى فاتت بس ..

وبدأ توفيق الحكيم يقص على آخر حالات الغباء عنده ..

كان عائدا من الاسكندرية .. فى أوائل الشهر ليقضى فى القاهرة يومين .. وكانت العائلة تقيم فى الاسكندرية والبيت مغلق .. وكان عليه أن يعيش فى البيت وحيدا .. ولم يجد المسألة عسيرة .. إذ لم يكن عليه أن يمضى فى البيت غير سواد الليل ...

ووصل الى البيت فى الساعة التاسعة .. وفى طريقه الى الباب تذكر فلوس النور .. هل دفعها أم نسى أن يدفعها ؟ .. وإذا كان قد نسى دفعها فهل أنذرته الشركة بقطع النور أم هل قطعته فعلا ؟

لا بد أنها تستذوق وترسل له انذارا أولا ..

ولكن هبها لم تستذوق وقطعت النور .. ماذا يفعل .. كيف يقضى ليلته بلا نور ؟ .. انه يذكر الطريق الى حجرته ويستطيع الوصول اليها لو أن البيت فى حالته الطبيعية . ولكن الآن السجاجيد مرفوعة والاثاث مكوم .. ومعالم البيت قد تغيرت .. كيف يستطيع الوصول الى فراشه .. ويعرض نفسه

للاصطدام والكعبلة .. ان أأمن طريقة هى أن ينام وراء الباب مباشرة حتى الصباح .

ولكن لماذا كل هذه الوسوسة .. الا يحتمل أن يكون قد دفع الفلوس .. أو يحتمل أن تكون الشركة استذوقت باعتبار أنه فى المصيف .

أجل .. أجل .. يحتمل جدا ..

وأعاد الطمأنينة الى نفسه وتقدم .. ودفع المفتاح فى الباب ثم فتحه .. وقبل أن يخطو خطوة الى الداخل مد يده وضغط زر الكهرباء الموجود فى الدهليز وراء الباب ..

ولم يضىء الدهليز ..

وضغطه .. ثم أعاد ضغطه ..

واستمر البيت مغرقا فى الظلام ..

وهكذا وقع المقدور .. وتحققت الوساوس ..

وبحلق بعينيه الى الداخل .. فلم يبصر شيئا .. لا شىء البته .. لا جدران ولا ارض ولا سقف ولا أثاث .. لقد كانت الظلمة فظيعة .. وكان الدخول مستحيلا ..

وأغلق الباب .. وعاد ادراجه .. ونادى البواب .. وأخرج من جيبه خمسة قروش وسأله أن يحضر بها شمعا ..

أجل .. ليس هناك مخرج سوى هذا ..

ووقف الحكيم أمام الباب .. وكأنه على بابا أمام باب الكهف وبعد برهة حضر البواب وسلمه شمعة واربعة قروش ونصف قرش .

وأضاء الشمعة .. ثم فتح الباب ودخل .. وبدت معالم الشقة باهتة تهتز على ضوء الشمعة .. على أية حال انها خير من الظلمة ..

المهم أن يحتفظ بها مضيئة حتى يأوى الى فراشه .. ووضع الشمعة على المنضدة .. وبدت له وقد أخذت تذوب ويتساقط ذوبها على حافتها ثم ينزلق

على المنضدة ..

وبعدين .. مالها .. تذوب بمثل هذه السرعة يجب عليها أن تتمهل حتى يخلع ملابسه ويعد نفسه للنوم .

واتجه الى الدولاب .. ثم بدأ يخلع ملابسه .

والقى عليها نظرة ، فخيل اليه أنها قد انقرضت الى النصف .. ولم يزل أمامه الكثير مما يفعله ..

وبدأ سباق بينه وبين الشمعة ..

وساءل نفسه : لماذا لم يحضر هذا البواب الأحمق بضع شمعات .. لو أنه فعل لاطمأن قلبه واستطاع أن يضيء من حجرات البيت أكثر مما أضاء ، ولما اضطر الى أن يحمل الشمعة فى كل روحة له وغدوة .. ولما احتمل لسعتها عندما يسقط ذوبها فوق اصابعه .

لقد ابتاع له البواب شمعة واحدة .. بقرش أبيض .. انه يعرفه جيدا .. يعرف مبادئه وحدوده .. لقد تعود أن يبتاع له ترمسا بقرش .. فلماذا يبتاع له شمعا بأكثر من قرش ..

ولكن الترمس ليس كالشمع .. أنها مسألة ظلام أو نور .. هل يكثر عليه أن يبتاع بخمسة قروش نورا ؟ ..

لعنة الله عليه ..

وأخيرا ذابت الشمعة .. وآوى الحكيم الى فراشه على آخر لمحة ضوء ارسلتها فى البيت ..

وفى الصباح استيقظ .. ثم بدأ يلم أوراقه وسحب عصاه .. وقبل أن يهم بمغادرة الحجرة ارتطمت العصا بمفتاح الكهرباء ..

وبمنتهى البساطة أضيئت الحجرة .. الله .. ايه الحكاية ؟ ..

ويتمتم توفيق الحكيم القصة أو الحالة قائلا :

- اتارى الدهليز مافيهش لمبة .. واتارينى ضيعت الليلة كلها وأنا دايخ

مع الشمعة .. والنور موجود فى البيت كله .. ولا خطرش فى بالى أجرب أى زر تانى غير زر الدهليز .. بالذمة .. دى مش غباوة !!

وكان على أن اتعظ من درس الحكيم .. فأتبين بعد ذلك حالات الغباوة التى يمكن أن يصاب بها الانسان من هذا القبيل .

ولكن حدث وأنا فى بلودان .. أن استيقظت فى الصباح الباكر ، وكان أنيس منصور ينزل معى فى نفس الحجرة .. وسألته قائلا :

– فيه مية سخنة فى الحنفيات يا أنيس ؟

وأجابنى وهو نصف مغمض :

– امبارح الصبح كان فيه ..

ودخلت الحمام .. ووقفت تحت الدش وفتحت حنفية الماء الساخن .. فنزل الماء باردا .. وانتظرت أن تنتهى دفعة الماء البارد من المواسير ثم يعقبها الماء الساخن ..

وطال انتظارى وأنا اتكتك تحت الدش .. والماء فى بلودان ليس ماء باردا فقط ولكنه مثلج .. وكان على أن أحتمل واتمم الاستحمام بالماء المثلج .. وكلما أحسست بقرصة البرد صحت بأعلى صوتى « الله يخرب بيتك يا أنيس » .. كأنما هو المسئول عن حنفيات الفندق .

وأخيرا انتهى العذاب وارتديت ملابسى .. وقبل أن أغادر الحمام مددت يدى أغسل الصابونة .. ولم أجد مبررا لاستعمال الحنفية الساخنة ما دامت هى والباردة سواء .. وفتحت الحنفية الباردة فإذا بمياهها تلسع يدى من فرط السخونة .

يا نهار أسود ..

لقد كانت الحنفيات موضوعة خطأ .. كان على الحنفية الباردة حرف H أى حارة ، وعلى الحارة حرف C أى باردة .

أما لماذا أحاول أن أجرب الاثنتين .. مع علمى بأن هذا الخطأ يحدث فى كل البيوت .. فلا أظنها أكثر من حالة غباء .

معدم بين المعدمين

هل ينبغى أن يظل الكاتب معدما لكى يكتب عن المعدمين؟

وهل يجب أن يتشبث بالبؤس لكى يفهم أحاسيس البؤساء ويعبر عن مشاعرهم؟!

لقد كتب الى الأخ محمد عبد العزيز الزغبى من جامعة عين شمس، يعترض على عندما تمنيت ذات مرة أن أبنى فيللا اقطنها. وشرح وجهة نظره قائلا:

«انى اريدك أن تظل كما أنت تكتب من أجل الشعب التعس . انى أكره أن اراك ترتفع الى الطبقة الارستقراطية ، بل اريدك أن تظل حيث أنت. ولا أقول فقيرا.. لأنك لست فقيرا. لا أريدك أن تكتب وانت فى حجرة المكتب الفاخرة فى الفيللا الانيقة ، بل تكتب وأنت جالس فى مقر عملك أو فى حجرة متواضعة فى شقة تستأجرها. فأنا أكره أن أتصورك تستيقظ وتدق الجرس فيحضر الخادم وتطلب منه أن يأمر السائق بأن يعد السيارة لأنك خارج ، بل أريدك أن تستيقظ وتسير حتى محطة الأوتوبيس وتجد الاتوبيس مزدحما فتضطر الى أن تتشعبط مع باقى مواطنيك.

رحمة الله على الكتاب الذين بدأوا فقراء ثم امتلكوا وارتفعوا وتغطرسوا وتركوا كفاحهم الأول.

وتقبل تحياتى وأشواقى ورجائى أن تظل كما أنت.. ولا أقول فقيرا

لأنك لست فقيرا. وإن كنت افضل لو كنت فقيرا معدما.. أن الأدب الصحيح فى نظرى هو الذى يكتبه المعدمون من أجل المعدمين ...» .

وتحقيق رجاء الأخ فى أن أبقى كما أنا .. أمر غير عسير .. بل أغلب الظن أنى بغير رجائه باقى كما أنا .. فمستقبلى فى عالم الثراء - ما لم أكسب يانصيبا أو أعثر على كنز - مستقبل غير زاهر .. فمهنة الكتابة ليست من مهن الثراء الفاحش التى يخشى على الأخ القارىء من أخطاره الداهمة .. التى قد تؤدى الى انتزاعي من طبقة المعدمين الى الطبقة الارستقراطية .

ومع ذلك فأنا اتساءل عما كان يمكن أن يحدث لو أن الكتابة حقا مهنة مريحة .. وأن القارىء عندنا يشترى الكتاب ولا يقترضه ، وان الكتاب الواحد لا يشتريه واحد ويقرؤه خمسون بل يتساوى فى الاعتبار بتذكرة السينما والبطيخة وماتش الكرة .. وتصبح المكتبة فى كل بيت جزءا أساسيا منه كالمطبخ .. وحجرة الاستقبال .. وتحتل ميزانية الكتب جزءا من ميزانية كل بيت .. مع الطعام واللبس والسكن والنزهة ..

ماذا يحدث عندما تمحى الامية .. أمية الجاهلين وأمية المتعلمين ويصبح لدينا مليون قارىء .. وتصبح طبعة الكتاب الناجح لا تقل عن نصف مليون نسخة ؟

ماذا يمكن أن يكون موقف الكاتب عندما تتدفق نحوه النقود وعندما يجد نفسه فعلا محاطا بأخطار الثراء ؟

كيف يمكنه أن يدفع عنه غائلة الثراء .. ويبقى معدما بين المعدمين ؟

اننا نريده أن يبقى معدما .. لكى يستطيع أن يعبر عن المعدمين وهو إذا استطاع التعبير عن المعدمين .. وكان فنانا أصيلا .. فإن فنه سيكون صادقا معبرا.. وسيقبل عليه المعدمون وغير المعدمين.. وإذا اقبل عليه الناس.. فسينتشر انتاجه انتشارا واسعا . وإذا انتشر انتاجه.. فسينتفخ جيبه ويصاب بداء الثراء .. الذى سيخرجه من عداد المعدمين .. ويدخله فى عداد الكتاب

الذين ترحم عليهم الأخ صاحب الرسالة.. والذين - علي حد قوله - بدأوا فقراء ثم امتلكوا وارتفعوا وتغطرسوا وتركوا كفاحهم الأول..

فخطر الثراء اذن واقع لا محالة.. ما دام الفنان فنانا اصيلا ناجحا .. وإن كانت الادلة تعوزنا فى الكتاب - لقلة عدد مستهلكى انتاجهم - فإن الادلة لا تعوزنا في غيرهم من الفنانين الذين اتسع محيط روادهم.. كفنانى الموسيقى والسينما.. مثل أم كلثوم وعبد الوهاب وفاتن حمامة والريحانى وأنور وجدى وفريد الأطرش واسماعيل يس.. وغيرهم من الفنانين الناجحين.. الذين اتاح لهم نجاحهم اقبالا من الجماهير.. منحهم سعة فى الرزق.. وأصابهم بثراء لم يستطيعوا دفع غائلته.. أو صد اخطاره..

ولكى يبقى الفنان..معدما بين المعدمين.. ليس أمامه سوى حلين لا ثالث لهما .. الأول : أن يكون فاشلا .. أى غير فنان .. وهو ضامن فى هذه الحالة أن انتاجه البائر سيصد عنه الناس .. وأنه بمنجاة من خطر الثراء .. وأنه باق عمره معدما - إن كان معدما - بين المعدمين .. وإن كان بقاؤه بينهم كعدمه لأنه عاجز عن الانفعال والتعبير والتأثير ..

والحل الثانى : أن يصد عن نفسه غائلة الثراء .. فيتخلص من ايراده أولا بأول .. حتى يحتفظ بمركز ممتاز بين المعدمين .. والطريق الى ذلك لا يمكن أن يكون الا بإحدى اثنتين .. أولهما وأيسرهما هو أن يحولها الى بالوعة من بالوعات الكيف : خمر .. أو قمار .. أو حشيش .. أو ثلاثتهما معا .. فلا يضمن بقاءه بين المعدمين فحسب .. بل يزداد عدما على عدم ..

فإن تعذر الكيف ولم يجد فى نفسه قدرة عليه .. ولا قابلية له .. فليس أمامه الا أن يفرق نقوده على من حوله .. فلا يبقى معه مليما يمكن أن يدفع به الى خطر الثراء ..

والحل الأخير - على ما فيه من سفه - هو خير الحلول لصد غائلة الثراء .. وكان حريا أن ننصح به الفنان لولا خشيتنا من أمر واحد .. وهو أن يظل الفنان يعطى نقوده لمن حوله حتى تصيبهم هم غائلة الثراء ، فإذا بهم قد انفضوا من حوله تاركين له صفوف المعدمين الى غير المعدمين .. وينتهى

الأمر بالفنان الى أن يجد نفسه معدما ولكن ليس بين المعدمين .. ولا يجد هناك من يكتب من أجلهم بعد أن أخذوا ماله وخلوا به ..

وأؤكد للأخ القارىء .. أنه لو حول اليه مبلغ مائة جنيه شهريا من حساب أحد الكتاب (وليكن مثلا توفيق الحكيم) لكان أول من يترك صفوف المعدمين .. ولأسرع بابتياع عربة تغنيه عن الشعبطة فى الأتوبيس ..

اذن فبقاء الكاتب معدما بين المعدمين .. مسألة متعذرة .. الا بالفشل أو الفساد .. أو السفه .. أى بثلاث وسائل .. يجب أن تكون ضمن رسالة الكاتب الاجتماعية .. النهى عنها لا الانغمار فيها والاصابة بدائها ..

ولا أظن هناك كاتبا ناجحا .. عاقلا .. فى أمة مثقفة واعية .. استطاع أن يلزم صفوف المعدمين .. وأن يصد عن نفسه غائلة الثراء ..

ومع ذلك .. فالمسألة ليست مزعجة الى الحد الذى يتصوره القارىء .. فالفنان الأصيل أصفى نفسا .. وأعمق إحساسا .. من أن تبدله النقود .. فهو ليس ثرى حرب .. ان له من قوة وعيه وحسن إدراكه ما يضع سياجا حول مشاعره الصادقة النابعة من أعماقه ..

فطه حسين عندما اعتلى كرسى الوزارة .. وركب العربة الفاخرة .. لم يفقد قط احساس الطفل الضرير الذى يعب الماء من الصنبور بعد الطعام خشية أن يشرب أمام الناس .. لقد خرج من صفوف المعدمين .. ولكنه لم يتنكر لهم ولم يفقد إحساسه بهم .

ومسألة المكتب الفخم والعربة الفاخرة .. هى آخر ما يمكن أن يغير نفسية الكاتب .. أو يضعه فى الطبقة الارستقراطية .. أو يدفع نفسه إحساس الغطرسة .. فهى قد تكون فى نظر البعض أشياء ضرورية مكملة لقيمة الانسان متممة لاعتباره أمام الناس .. أما الكاتب فأشد فهما لنفسه واعتزازا بقيمته .. فهو يعرف أنه بعربة فاخرة وبغيرها .. هو هو .. فالعقاد على قدميه .. أو فى حنطور .. أو فى تاكسى .. أو فى كاديلاك .. هو العقاد .. انه يعرف أن قيمته أضخم من أن يؤثر عليها مظهره ..

فالكاتب عندما يكتب انما يعيش فيما يكتبه .. ولا يعود يذكر قط أنه يجلس فى حجرة فاخرة .. ومع ذلك فأنا لا اعتقد أن هناك كاتبا متمسكا بالحجرة الفاخرة حتى لو تهيأت له .. وعن نفسى لا أنكر أنى كتبت مرة واحدة فى حجرة مكتبى العادية .. المفروض أن أجلس فيها كأى انسان عادى .. ولست أدرى السر فى هذا .. ولكن الذى أعلمه هو أنى لم أستطع الكتابة فى البيت الا فى حجرة فوق السطوح .. وضع بها برميلان تخزن بهما المياه عندما يتعذر وصولها الى الدور العلوى .. ومنضدة خشبية صغيرة صنعت أصلا للمطبخ واستوليت عليها أنا للكتابة بعد أن فرشتها بورق الجرائد .. وكرسى من المواسير الصاج والخشب .. فى هذه الحجرة وعلى هذه المنضدة وفوق هذا المقعد .. يفرجها الله على .. أو كما يقولون يهبط الوحى ..

وعندما كتبت قصة أرض النفاق ، كنت وقتها مدرسا فى الكلية الحربية .. وكنا فى شهر رمضان .. وكانت لا تحلو لى الكتابة بعد أن أنتهى من حصص التاريخ الا فى مخزن قديم كائن فى سرية الصف والعساكر ، كان يمنحه لى قائد السرية وقتذاك عبد الرءوف طلبة .. بعد أن يخليه مما به .. وكان الجو وقتذاك شديد الحرارة .. فكنت أجلس فى وسط الحجرة وقد خلعت الحذاء والقميص والبنطلون .. وأغلقت النوافذ والابواب وأغرقت ارض الحجرة الضيقة بالمياه .. وانهمك فى الكتابة وأنا عائم وسط الحجرة ..

وما لى أذهب بعيدا وأنا أكتب الآن على منضدة الأكل .. وأمامى علبة بها فول مدمس وزجاجة زيت وصبينية وضع بها فلفل رومى أخضر وقوطة .. إعدادا للحشو .. والخادمة تحوم حولى تريد أن تمسح أسفل قدمى بعد أن مسحت كل الغرفة عدا الجزء الذى أجلس فيه .. وابنى يصيح فى الخارج ويرجونى أن اكف عن الكتابة .. وأنهض لألعب معه الكرة ..

لماذا أجلس وسط هذه الكركبة .. ولا اتربع فى حجرة المكتب كبقية الناس الذين يؤدون عملهم على مكاتبهم .

أما الجرس الذى يخشى على القارىء من أن أدقه ليحضر الى الخادم .. فليطمئن باله من هذه الناحية .. لأن الجرس دائما متعطل .. ولأن الخادمة التى

لدينا لا ترد .. الا إذا انتقلت اليها وطلبت منها أن ترد ..

وأما العربة .. فقد تعودت أن تقف فى كل تقاطع مرور ولا تقوم ثانية الا بالزق .. فاضطر الى الاستعانة بمن حولنا من البوابين ونظل تدفعها حتى تقوم .. وأؤكد له أن الشعبطة فى الأوتوبيس خير بكثير من عملية الزق هذه .. بما يصاحبها من فضيحة فى عرض الطريق .. وفى وسط المرور .

وبعد .. أما زال القارىء يخشى على الكتاب من غائلة الثراء .. ومن الصعود الى الطبقة الأرستقراطية ؟ .

أؤكد لك أنهم أعقل من هذا .. انهم لا ينسون أنفسهم أبدا ..

لقد نشأت فى السيدة زينب .. ولم أنس أبدا أنى ربيب جنينة ناميش .. وأظن أن خير ما اعتز به هو كتابى « بين أبو الريش وجنينة ناميش » .

سكينة والقصة الضائعة

كان يجب أن أقدم لكم قصة .. وقد تكون أفضل لديكم .. من هذه « السكينة » التى اقدمها لكم الآن .. ولكن ما حيلتى وسكينة قد سرقت القصة .. وتركتنى حائرا لا أجد ما أقدمه .. سوى سكينة نفسها ..

تفضلى يا ست سكينة .. لا تخجلى .. تقدمى حتى يراك القراء .

لا تريدين التقدم .. أنت مكسوفة ؟

لا لا .. هذا لا ينفع .. اما أن تتقدمى أو تقدمى القصة .

تقولين انك لم تأخذيها ؟ .. وأنا أقسم انك أخذتها .

وأنت ايضا تقسمين .. وتقولين انك ..

على أية حال هذا وقت المناقشة وتبادل القسم والايمان .. لا يصح أن نترك القراء يقفون بباب الصفحة .. وهم يتساءلون فى غيظ .. قل لنا أولا .. من تكون سكينة هذه .. ولما سرقت القصة ؟

أما من تكون سكينة .. فهو سؤال من اليسير الاجابة عنه .

أما لماذا سرقت القصة .. فلولا أنى مؤمن با لله .. موقن بأنه عليم بكل شىء .. لقلت أن الله نفسه لا يعلم .

سكينة .. خادمة عندنا .. أو على وجه أدق .. عند حماتى :

وارجو الا يأخذكم بها استهانة أو استخفاف .. فمنصب خادمة حماتى ..

ليس بالمنصب البسيط .. بل هو منصب متوارث .. يتوارثه أهل « بتانون » بجوار الماكينة الزرقاء جيلا بعد جيل .. ويظلون فيه حتى يتلفقهم « بيت العدل » حيث يمارسون سلطانهم فى الزوج السعيد .

وسكينة .. وريثة صلوحة .. خليفة محضية .. خليفة رتيبة .. خليفة سلسلة من الأسماء الكريمة التى لا يعيها الذهن فى الوقت الحاضر ..

وسكينة هذه مخلوقة ربعة .. قصيرة القامة عريضة المنكبين .. قوية العضلات .. كبيرة الثديين مدلاتهما .. قصيرة العنق غليظته .. كرتاء الشعر . وهى - بعد كل ما ذكرت من اوصاف لا مبالغة فيها - شديدة الاعجاب بجمالها .. لا تبخل على نفسها بشتى أنواع الزينة .. أو ما تظنه هى زينة .. وكان آخر ما رأيت من مظاهرها .. مانيكير فى أظافر يدها .

وسكينة أكولة نهمة .. تكاد تسيطر معدتها على كل تصرفاتها .. وهى فى نهمها شديدة الشبه بالمكنسة الكهربائية .. تلتهم كل ما يعرض فى طريقها وكأن بفمها شفاطة يمر بداخلها تيار شديد من الهواء يشفط كل ما يصادفه ويلقيه فى بطنها بلا تمييز ولا تذوق .

وقد انتهى الامر بحماى وحماتى الى أن أضحى جل مجهودهما فى الحياة منصرفا الى التحفظ على متاعهما من طعام وشراب ضد شفط سكينة ، فجمع حماى ما يخصه من جبن وقراقيش فى دولاب القمصان أو « الشفونير » وجمعت حماتى مأكولاتها ووضعتها تحت الفراش ، وأضحت الثلاجة خاوية على عروشها وأضحيت - وأنا أقطن فى الدور العلوى - معرضا لغارات سكينة تشنها على بين آونة وأخرى . فلا نكاد نشعر بوقع اقدامها على السلم حتى يصيح منذر « سكينة طالعة » فنسرع باغلاق الدواليب وإزالة كل ما نخشى عليه من طريقها .. حتى لا تشفطه وهى سائرة .

والسرقة من اكبر هوايات سكينة .. ولست اقصد بالسرقة .. سرقة الاطعمة .. فهذه لا تعتبر هواية .. بل احترافا .. أو هو واجب لا بد لها من تأديته نحو معدتها .. ولكنى اقصد السرقات الأخرى .. التى لا يمكن أن تعود عليها بأية فائدة .. والتى تقدم عليها .. لمجرد الهواية ..

بدأت مظاهر تلك الهواية .. عندما اكتشفنا اختفاء أشياء مختلفة متناقضة ليس لاختفائها مبرر معقول .. فردة شراب مثلا .. أو قلم رصاص .. أو مجلة الكواكب .. أو نتيجة .. أو صابونة .. أو مشابك .. أو .. أو .. أشياء لا تكاد توجد بينها صلة .. ولا يمكن أن تكون ذات فائدة لمخلوق بحيث يشك في أنها سرقت ..

ولم نملك الا أن نسلم باختفائها .. كما يسلم المرء بالكثير مما يحدث له دون أن يرهق نفسه في التفكير في أسبابه أو مبرراته . واقتنعنا بأنها قد تكون مختفية وراء دولاب أو مقعد أو تحت منضدة أو مكتب .

وتكرر الاختفاء .. وتكرر قبولنا له وتسليمنا به .. ولم نكن نملك غير ذلك .. فإن محاولة اتهام أحد بسرقته نوع من التجنى .. من العسير الاقدام عليه .. فقد كانت الاشياء في مفرداتها عديمة الجدوى .. ولا سيما لسكينة التى لا يمكن أن يلائمها الا الأشياء المأكولة المبلوعة التى يمكن أن تستقر فى المعدة .. وكنت اعتقد أن سكينة على نهمها لم يصل بها النهم يعدِ الى ابتلاع الجوارب والأقلام والمشابك والصابون .

الى أن كان يوم .. سمعت فيه صياحا من الدور السفلى .. ونزلت لأتبين الخبر .. فوجدت عمر « وهو أحد أحفاد حماى وكان وقتئذ يقيم معنا لأن ابويه فى الاسكندرية وهو فى كلية الهندسة بجامعة القاهرة » قد قلب حجرته رأسا على عقب وأمسك بتلابيب سكينة وأخذ يصيح بها :

– قولى .. أين المشروع ؟

ووقفت سكينة تحملق فيه فى بله وتقول ببساطة :

– لا أعرف .

– أنت التى ساويت الحجرة .. ولا يمكن أن يكون هناك من أخذه غيرك .

وخلصت الفتاة من قبضته وأخذت فى تهدئته متسائلا :

– ما الخبر .

- المشروع ضاع .

- أى مشروع ؟

- المشروع الذى سهرت خمس ليالى فى انجازه .. لقد هلكت فيه حتى أتممته .

- وكيف ضاع ؟

- ضاع من هذه الحجرة . فى الصباح وضعته بيدى فوق هذا المكتب .. والآن لا أجد له أثرا .

- قد تكون أخذته معك وأنت ذاهب الى الكلية .

- لا .. لا .. لقد تركته هنا .. لأنه لم يكن هناك ما يدعو لأخذه لأن موعده باكر ..

- اذن ابحث عنه جيدا .. لا بد أن يكون هنا أو هناك .

- لقد قلبت الحجرة رأسا على عقب .. ليس له أثر .. لا بد أن تكون هذه الحيوانة قد سرقته .

- لا تكن غبيا .. هل مشروعك هذا مرسوم على ورق الجلاش ؟

- جلاش ؟ . أتمزح ؟

- هل هو مرشوش عليه سكر .. أو مغموس فى العسل ؟

- ما هذا الذى تقوله .. أنه مشروع .. مشروع .. مرسوم على ورق رسم .

- إذن .. انتهينا .. لا يمكن أن تكون سكينة قد سرقته .. فهى لا تسرق الا كل ما يؤكل .. ابحث عنه جيدا .

- لقد قلبت الحجرة .

اذن ابحث فى الكلية .

- لا يمكن أن أكون قد ذهبت به الى الكلية .. أنا واثق .

- إذاً أرسم غيره .

وتركته وانا واثق أنه لا بد واجده .. معتقد أن تهمته لسكينة ليست الا من أعمال العبط .. التى كان يفتأ يرتكبها من آن لآخر ..

ومع ذلك لم يجد المشروع .. واضطر المسكين الى أن يسهر خمس ليال لرسم مشروع آخر .. ولم يكن يخرج الا والمشروع فى يده ولا ينام الا وهو بين احضانه .. معتقدا تمام الاعتقاد أن سكينة ستسرقه .

وحاولت مرارا أن اردعه عن هذا السخف قائلا له :

- لا تكن غبيا .. ماذا يمكن أن تفعل سكينة بمشروع هندسى ؟ أنا أصدق كل شىء فى سكينة عدا انها تسرق مشروعك .

وكنت صادقا فى قولى .. فقد كان كل شىء فى سكينة جائزا عدا أقدامها على سرقة المشروعات الهندسية .

وهكذا اتخذت الموضوع مادة للسخرية من عمر .. والتشنيع به .. لا أكاد القاه حتى أسأله :

- أما زلت مصرا على أن سكينة تسرق مشروعاتك ؟

حتى كان يوم .. انتهيت فيه من كتابة إحدى القصص وطويتها ووضعتها على المكتب استعدادا لتسليمها للمطبعة .

وخرجت الى النادى ثم عدت .. فلم أجد القصة .

ولم افزع بالطبع .. فقد كان آخر ما يخطر ببالى أن تكون قد ضاعت ، كل ما ظننته - وأنا اعرف فى زوجتى هواية نقل كل ما أضعه من موضعه - ان المكتب قد اعيد ترتيبه وأن القصة قد اختفت فى هذا الدرج أو تحت هذا الكتاب .. حتى لا تفسد ترتيب المكتب ونظامه .

وبهدوء بحثت فى الادراج .. وتحت الكتب ..

وبهدوء أقل .. أعدت البحث .. ثانية .

ثم .. بغير هدوء مطلقا .. أعدت البحث ثالثة ..

وإذا عرفتم .. أن أشد ما أخشاه في حياتي .. هو ضياع إحدى قصصي قبل طبعها .. وأنه كثيرا ما تنتابني الوساوس بعد أن أعطى القصة للمطبعة فأخشى أن يشب بها حريق يلتهم القصة .. وأنا لا أملك منها الا صورة واحدة ..

إذا عرفتم هذا أدركتم مدى ما أصابنى هياج وأنا أبحث عن القصة وأصرخ على من فى الدار أسألهم عنها .

وبحثت فى كل درج ، وفي كل ركن وتحت كل كتاب وتحت الحشيات والسجاجيد . وفى كل ما يخطر ولا يخطر ببال أن توضع به القصة .

وبين الوجوه المحيطة بى ، أطل وجه عمر ورأيته يقول فى لهجة جادة مؤكدة :

- أجاءك قولى .. أصدقت أن سكينة قد سرقت المشروع ؟ .

ونقلت البصر من وجهه الى وجه سكينة الأبله البرىء .

وصحت به :

- ماذا تقصد ؟

- أقصد أن القصة لم تفت سكينة ابدا .

ولم أكن فى حالة تساعدنى على قبول المزاح وقلت له ساخرا :

- أرجوك .. لا أريد مزاحا .

- أنا لا أمزح .. أتريد أن أؤكد لك ..

- تؤكد لى ماذا .. تؤكد لى أن سكينة وهى لا تعرف القراءة قد سرقت القصة .. كما سرقت المشروع .. ماذا يمكن أن تفعل بهما ؟

كف عن هذه السخافة .

ثم عدت مرة اخرى أبحث عن القصة .

ولم تظهر القصة .. ولم اعرف ابدا أين ذهبت .. ومع ذلك فلم احاول

أن اقنع نفسي بما قاله عمر .

ان سكينة قد تجوز عليها كل التهم .. فالذى وضع القوة فى معدتها قد أخذها بلا شك من ذهنها .

وأنا أذكر يوم خروجنا جميعا من الدار وأمرتها سيدتها بأن تغلق جميع الابواب والنوافذ قبل أن تخرج فكانت النتيجة أن أطلت علينا من طاقة مستديرة فى السلم وصاحت متسائلة :

– لقد اغلقت الابواب والنوافذ .. فمن أين أخرج ؟

وصحت بها ساخرا :

– الق بنفسك من النافذة .

واندفعت حماتى تصيح فى خوف :

– انزلى من الباب ثم اغلقيه .

ووجهت الى القول فى دهشة :

– امجنون أنت .. الا تدرى أنها قد تفعلها وتلقى بنفسها فعلا من النافذة ..

فهى بلهاء ما فى ذلك شك – وهى مع ذلك ضحوك طروب .. أو ربما كان لك متمما لبلهها .. فهى لا تكف عن الضحك .. وهى لا تفتأ تدندن بين آونة وأخرى بالحان وأغان لا أكاد أميزها .. وقد سمعت من ابنى بالأمس أنه سمعها وهى تغنى « جواب حبيبى » .

وهى على بلهها .. مغازلة .. لعوب .. بالطريقة التى يسمح بها تفكيرها .. وأذكر ذات مرة أنها استكتبت الجناينى خطاب غرام لعسكرى الدورية .. ومنذ بضعة أيام حاولت مغازلة البواب فضربها على رأسها وصاح بها محذرا :

–ابعدى عنى يا بت .. الرجال أمامك كثيرون .. لا تقطعى رزقى .

وعلى هذا فلم أكن لأستبعد عليها منكرا .. اللهم الا سرقة المشروعات

الهندسية .. والقصص .

ولكن يبدو أن عمر لم يكن يستبعده كما استبعده .. بل كان موقنا كل اليقين من أن المشروع والقصة لم يفلتا من سكينة .

ولست ادرى كيف دبر الأمر ولا وضع الخطط .. ولكن الذى أعرفه هو أنى فوجئت يوما بصياحه بأعلى صوت .. وهو ينادينى فى منتهى اللهفة .

ولم أميز مصدر صوته .. كان الصوت آتيا من مكام لا أعرفه ، لم يكن من حجرته ولا من أى حجرة بالبيت .. ولا من المطبخ .. ولا الحمام .. واستلزم الأمر منى بعض البحث حتى أكتشفت أنه آت من الصندرة التى فوق المطبخ .. واستطعت أن اراه يطل على بوجهه من بابها وقد حشر فيها جسده السمين .

صاح وهو يلهث :

- أطلع .. لقد وجدته .

- وجدت ماذا ؟

- كل شيء.. اطلع .. اطلع .

وتسلقت السلم.. وحشرت جسدى معه فى الصندرة الضيقة.. وعلى الضوء الباهت.. رأيت جميع الأشياء الضائعة.. من كل نوع وصنف.. مشابك.. صابون.. فرد شرابات.. علب ورنيش.. زجاجات فارغة.. لعب اولاد.. وبين كل هذا.. وجدت المشروع المفقود.. والقصة الضائعة.

وأمسكت القصة فى فرحة.. أو على الأضح فى نصف فرحة.. فقد ضاع النصف الآخر.. بضياع نصف القصة فى جوف الفيران.. كما ضاع ثلاثة أرباع المشروع الهندسى.. لقد كان الفأر القارض أديبا مهندسا.. أو على الأقل أضحى كذلك بعد ابتلاعه نصف القصة وثلاثة أرباع المشروع.

وقال عمر فى شماتة :

ألم اقل لك ؟

وتساءلت في ذهول: .

- ولكن ماذا يدعوها الى هذه السرقات غير المفيدة؟

ولم يجب عمر.. ولكنى ادركت الاجابة.. كانت سكينة بلا شك تقلد صلوحة.. التى اورثتها عرش الخدمة.. بكل تقاليده ومن بين هذه التقاليد عملية التخزين في الصندرة.. ولكن صلوحة كانت تخزن الاشياء المفيدة.. كانت تعد نفسها لبيت العدل.. كانت تكوم الملابس والصابون وغيره من الاشياء التى يمكن أن تأخذها عندما تنتقل الى بيت الزوجية.. ولم يستطع ادراك سكينة أن يعى هذا.. كل ما وعته.. أن عليها أن تخطف أشياء وتضعها في الصندرة.. مجرد تقليد أعمى.

وأحسست بدمي يفور.. ونفذ شعاع بصرى من باب الصندرة الى نافذة مقابلة تطل على الحديقة ورأيت سكينة تتشاغل بغسل الأوانى.. ولم يكن بصرها موجها للآنية بل كان معلقا بوجه سيد بلبل الحارس الاسود للجاراج المجاور.. ووصل الى صوتها خافتا وهو يدندن « مال القمر ماله ماجيناش على باله ».

وانفثأ غضبى ووجدت نفسى أضحك.. والقيت ببقية القصة في الصندرة ليلتهم الفيران طعامهم فيها بالهناء والشفاء.. انها أجدى على أجسادهم منها على عقول القراء .

فيل في قفة العيش

اليوم أعطيت بائع الخبز ، فيلا أسود .

ورجوته رجاء حارا الا يعيده الى .. ورجاء آخر ، بألا يخبر أحدا من أهل الدار أنى اعطيته اياه والا ينبس عنه ببنت شفة .

وقال الرجل عنى بلا جدال – انى مجنون .. نمت عن ذلك نظرات الدهشة والذهول ثم الحيرة والاستسلام التى تقبل بها القائى للفيل الأسود فى قفة العيش .

ولست أشك – من نظرات التساؤل والدهشة البادية فى أعينكم – أنكم ايضا تشاركون البائع فى ظنونه .

أى فيل أسود هذا الذى ألقيت به فى قفة العيش ؟ أمجنون أنا ؟ ومع ذلك فاؤكد لكم أنى لست مجنونا .. وأن فعلتى تلك .. تجزم بأنى عاقل جدا .. أعقل منكم ومن بائع الخبز .. أعقل حتى من صاحب حديث الصباح فى الاذاعة .. الذى تحدث اليوم عن الغضب وعواقبه .

وكيف كان ذلك ؟ .

كان فى بيتنا فيل أسود .. وكانت بينى وبين هذا الفيل الأسود خصومة مستحكمة .. ولم أكن قد بلغت من الحمق مبلغا يجعلنى أخاصم فيلا بريئا لا حول له ولا قوة وأجعل عقلى بعقله فأقيم بيننا سدود العداوة والبغضاء ، ولكن زوجتى كانت السبب ، انها هى التى أشعلت بيننا نيران الخصومة . فقد ملأت

البيت بالتحف والتماثيل والزهريات والطقايق وغير ذلك من المنثورات التى احتلت كل بقعة فى البيت ولم تترك فراغا على منضدة أو دولاب أو على أى سطح من أى نوع الا وشغلته حتى ضاعت الفائدة المرجوة من مثل هذه الاثاثات وأضحى لزاما على حين أريد الأكل أو الشرب أو الكتابة أن أمسك لوازمها فى يدى وأستعملها فى الهواء بعد أن أصبح الهبوط على مسطحات المناضد والمكاتب مستحيلا بسبب ما بها من نتوءات التحف التى أضحت جزءا من هذه المسطحات .

وهكذا أفقدتنى تحف الزوجة الفاضلة حرية الحركة فى بيتى وحمدت الله - الذى لا يحمد على مكروه سواه - أنه لم يجعل المقاعد والأرائك والفراش أماكن صالحة لعرض التحف حتى لا أضطر الى قضاء الساعات التى أقضيها فى البيت مصلوبا على قدمى ، وكان من الطبيعى والأمر كذلك الا أكن للتحف المذكورة أى إحساس طيب والا اعتبرها سوى غاصب محتل .. عصب حريتى واحتل دارى وتركنى أقف أمامه عاجزا مستسلما ازاء تمتعه بتأييد زوجتى .

وفوضت أمرى الى الله واعتبرت المناضد والمكاتب وبقية المسطحات التى تشغلها التحف العزيزة كأنها غير كائنة .

وتركت التحف ترعى فى الدار .. وتركت الزوجة ترعى فى نظافتها وترتيبها .. واكتفيت من الخصومة بنظرات قرف القيها بين آونة وأخرى على الاثنين .. التحف والزوجة ...

وكان من الممكن أن تجرى الأمور فى مجراها الطبيعى وأن أعتاد مضايقة التحف ، وتعتاد هى قرفى منها . والا تزيد المسألة على حرب باردة .

لولا .. الفيل الأسود .

كان الفيل المذكور .. يقف على الدولاب المنخفض الذى توضع فيه القمصان والذى يسمونه فيما أظن « شفونير » .. وكان يَستقر على البنورة الموضوعة على الدولاب بجسده الأسود الممتلىء وزلومته وأنيابه بلا أناقة

ولا رشاقة ولا أى نوع من انواع الجمال الذى يهيىء له .. أن يحشر نفسه فى زمرة التحف ، ولم أكن لأعترض عليه .. رغم ذلك .. وكنت خليقا بأن أسلم أمرى منه لله وأن أقول لنفسى « بجملة » .. لولا .. أنه شذ عن بقية التحف .. ولم يكتف بالخصومة الصامتة .. بل تعداها .. الى التحدى بالصوت والحركة .

كانت قاعدته غير مستوية .. بحيث تجعل وقفته على البنورة مقلقلة .. وكان خشب أرضية الحجرة – بفضل مجهود حماى مع النجارين الذين صنعوه – لا يكاد المرء يخطو عليه خطوة حتى يهتز كل ما عليه من أثاث .. بما فيه الشيفونير وما عليه من تحف وتماثيل وعلب وزهريات بينها الفيل الأسود الرجراج وتنتهى الهزة .. ويهدأ كل ما فى الحجرة .. ولكن الفيل لا يهدأ بل يستمر فى قلقلته ورجرجته . واهتزازاته حتى أقبض عليه بيدى وأمنعه عن الحركة قسرا . وهكذا جعلنى الفيل .. أعد خطاى فى حجرة النوم .. وأفكر مرتين قبل أن أخطو بها .

فإذا علمتم أنى أمارس الرياضة فى حجرة النوم كل صباح .. وأنى لا أكاد أقفز أو أتحرك حتى ينطلق الفيل فى اهتزازاته وتكتكته .. أدركتم مدى ما ضقت بالفيل ، وحنقت عليه ، وحاولت أن أضع تحت القاعدة المقلقلة قطعة ورق أو قطعة خشب تثبت القاعدة ، ولكن عمليات النظافة التى تجرى يوميا فى المنزل اطاحت بما وضعت وتركت الفيل مقلقلا كما كان ..

وأخيرا رفعت أمره الى ولية أمره .. وشكوت لها ما يفعله بى .. وسألتها أن تجرى حركة تنقلات بين التحف وأن تحاول أن تجد للفيل المذكور نقله الى مكان قصى لا يزعجنى فيه برجرجته .

ولكنها أنبأتنى أنباء خبير أنه ليس للفيل فى الدار مكان أنسب من هذا .. ونظرت الى الفيل ولم أعرف بالضبط لماذا يكون موضعه فوق الشفونير هو أنسب مكان له .. ولم أجد فائدة من المجادلة وصممت على أن أتولى أمره بنفسى وحملته فى هدوء وحشرته بين حشد من التحف على منضدة الصالون .. وفى الصباح .. لم أكد أقفز القفزة الأولى حتى سمعته يتقلقل بعنف فوق

الشفونير .. وخيل الى أنه ينظر الى فى تحد وسخرية وأحسست ببوادر الغضب يفور فى صدرى فهدأت نفسى وأمسكت الفيل من عنقه الغليظ وحملته فى حلم .. الى حجرة الصالون .

وفى الصباح التالى وجدته ثانية فى حجرتى .. فتذرعت بالصبر وحملته الى حجرة الصالون ، وهكذا ظللت أنقله كل صباح فى صمت لأجده قد عاد الى مكانه فى الصباح التالى ، ليبدأ ضجته وتكتكته . وكلما هممت بالغضب .. هدأت نفسى وأبعدته فى حلم وسكون . وطالت عملية النقل والاعادة .. وأنا اتمسك بأهداب الصبر .. والزوجة العزيزة مصرة على أن أنسب مكان للفيل هو الشفونير وعلى أن وضعه فى أى مكان سواه تشويه لترتيب البيت ، ولم أجد بدا ازاء اصرارها على هذه الطريقة فى تنظيم البيت .. وعلى أن يحتفظ الفيل العنيد بمركزه الممتاز فوق الشفونير .. وعلى اعادتها اليه كلما حاولت ابعاده .. من أن اخفى الفيل عن عينيها كلية . وفى غفلة منها حملته .. ووراء كوم من الكتب .. قذفت به .. وأحسست براحة كبرى .. وأنا أجده قد اختفى الى غير ظهور .. وراح الى غير عودة .. وحاولت ولية أمره أن تعيده فى صمت كما كانت تفعل فى كل مرة ولكنها لم تجده ..

وأخيراً سألتنى :

- أين الفيل ؟

ورفعت كتفى وقلبت شفتى ببساطة كأنى لا أعرف وضحكت ونظرت الى نظرة فاحصة كأنها تحاول أن تستشف مكانه من ذهنى وعادت تتساءل :

- قل الحق .. أين ذهبت به ؟

- لا أعرف .

وهزت رأسها .. وفى اليوم التالى كان الفيل يقبع مكانه فى منتهى التحدى ، لقد نظفت دولاب الكتب فوجدته طريح أرض الدولاب ، فأعادته الى عرشه .. كان الخطأ خطئى .. إذ لم أحسن اختيار المنفى .. كان يجب أن أختاره بعيدا عن متناول أيدى التنظيف .

وفكرت مليا .. ثم حملت الفيل الى أريكة يستعمل مقعدها كصندوق لوضع الأشياء القديمة التى لا تستعمل ليتخلص منها أهل الدار حتى تتوارثها الأجيال القادمة .. ملابس قديمة وزجاجات فارغة وكتب وأشياء أخرى لا تدرى من فرط قدمها فيم كانت تستعمل ، وحشرت الفيل فى اقصى ركن وتحت أسفل متاع .. وتنفست الصعداء . هذه المرة لن ترى عينه النور الا عندما يرثنا ابناؤنا . ان هذا المنفى أبعد من ان تناله حتى يد التنظيف .

وفى اليوم التالى بحثت عنه زوجتى فى صمت حتى يئست من العثور عليه .. وحاولت معرفة مكانه بالحسنى والتهديد وبشتى الحيل .. ولكنى أنكرت معرفته انكارا باتا . وأحسست أنى تخلصت منه تخلصا نهائيا وصرت أسير وأقفز فى الحجرة كما أشاء . ومرت الايام والشهور ونسيت الفيل .. نسيته تماما ، حتى استيقظت فى صباح اليوم وبدأت رياضتى فسمعت رجرجة وقلقلة ، وأنصت مذهولا ثم رفعت عينى فإذا بالفيل المنكوب يتربع على الدولاب وكأنى به يقهقه ساخرا .

لقد بحثت زوجتى عن مضرب الاسكواتش الضائع .. بحثت عنه كما رجوتها فى كل مكان ، حتى فى جوف الاريكة ، ولم تجد فيها المضرب ، ولكنها وجدت الفيل !! وقفزت من مكانى وأمسكت بعنقه والغضب يغلى فى صدرى ووصل الى مسامعى حديث الصباح فى الراديو يتحدث عن عواقب الغضب فأسرعت بإغلاقه قبل أن أحطمه .

كان يجب على أن أغضب ، ولو حدث لصاحب الحديث ما حدث لى لأبطل أحاديثه عن عواقب الغضب وتحدث فى ضرورته وفوائده .

وفتحت النافذة على مصراعيها وهممت بقذف الفيل .. ولكنى تذكرت أن ولية امره لن يصعب عليها ان ترسل الخادمة لاحضاره ووقفت ممسكا بخناق الفيل حائرا ماذا افعل به .

ودق الجرس فإذا به بائع الخبز . وأخذت الخادمة ما يلزمنا ، وقبل أن ينصرف الرجل دسست الفيل فى قفته ورجوته رجاء حارا الا يعيده .. والا ينبىء أحدا بأننى أعطيته اياه ..

أمجنون أنا ؟ ! .

(ليلة ٣٠)

أنا وعمي والكبيبة الشامي

مرة أخرى جمعتنى الظروف وعمى العزيز « طه السباعى » فى بيت واحد بلا خدم ولا حريم . وفى هذه المرة كنت السابق الى البيت فقد عدت من الاسكندرية وحيدا لانجاز ما تعطل فى غيبتى من أعمال ..

ومن أهم مشاكلى التى يتحتم علي حلها فى الفترة التى أقضيها وحيدا فى صيف كل عام .. مشكلة الطعام . فأنا مع زوجتى مجبر على الطعام فى أوقات محددة ، وأجد أصنافا جاهزة على المنضدة دون أن أشغل تفكيرى كثيرا فى كيف وضعت . وأنا مضطر فى سبيل العودة للطعام أن أقطع كل عمل لى مهما بلغت أهميته .

أما وأنا وحدى .. فليس هناك ما يدعونى للعودة الى البيت فى مواعيد معينة وأنا لا أحب أن أتهم نفسى بضعف الذاكرة أو السرحان - لأنى فعلا لست كذلك وأن حلا للبعض أن ينسبه الى لا لشيء الا لأنى كاتب . ومع ذلك فقد حدث وأنا فى إحدى تلك الفترات التى أحيا بها وحيدا أن شعرت فى الساعة السابعة مساء بضيق وكركبة فى المعدة .. ولم أدر سرهما حتى تذكرت أخيرا أنى نسيت أن أتغدى ..

وعلى ذلك .. وخشية النسيان .. كان على أن أدبر أمر طعامى بمجرد وصولى الى القاهرة .

والغداء أمره سهل ، فانى أستطيع تناوله فى نادى (هليوبوليس) أو فى

أى مطعم فى البلد إذا لم يكن لدى وقت للعودة الى مصر الجديدة .

بقى أمر الفطار والعشاء ، وأنا لا أتعشى سوى فاكهة يسهل تخزينها فى الثلاجة فأتناول منها ما أشاء وقتما أشاء . أما الفطار فأنا اتناوله فى الصباح المبكر . ولا يصمد فى معدتى ويقيم أودى حتى الغداء سوى الفول والطعمية .

أما الفول فتناوله يحتاج الى زيت وليمون وطبق ، والطبق يحتاج الى غسيل ، أى أن مسألته معقدة جدا ، ولذلك فلم تبق لى سوى الطعمية .

ولذا لم أكد أصل الى القاهرة حتى ابتعت مؤونتى من الفاكهة بطيخة وأقة تين وبضع حبات منجة هندى ، ثم توقفت عند أول بقال وابتعت نصف أقة جبنة رومى لمعاونة الطعمية فى الفطار وعلبة سردين كاحتياطى عام ..

ووصلت الى البيت .. ووضعت اكباس الكهرباء وفتحت محبس المياه .. ووضعت مؤونة الطعام فى الثلاجة وملأت زجاجات المياه وأطمأننت على وسائل العيش فى البيت ثم هبطت لأوصى الجناينى أن يحضر لى كل صباح رغيفا وطعمية وثلاثا من الصحف اليومية .

وفاجأنى الرجل بسبت ملىء بالمنجة جمعه من أشجار الحديقة . وأحسست وأنا أنظر الى السبت بالندم على ما ابتعته من الفكهانى ووظيفة شجر المنجة فى حديقتنا ليس اطعامنا منجة ولكن منعنا من شرائها .

فمن الحمق أن نشترى منجة ولدينا مثل هذه الكميات الهائلة ، وهى فى مظهرها منجة وفى مخبرها هيكل منجة أو « جلد على عظم » وعلينا أن نتمتع بأكلها ونحمد الله على البذور والجلد والألياف اللاذعة .

واستطعت أن أطرد من ضميرى اللوم . وحمدت الله الذى الهمنى أن أشترى المنجة الهندى قبل أن أرى سبت المنجة البيتى وأفرض على نفسى التمتع بأكلها .

وقذفت بما فى السبت فى الثلاجة ثم هبطت ثانية مغادرا الدار .

ومرت بضعة أيام وحياتى منتظمة .. نوعا ما .. والنظام والنظافة مستتبان الى حد ما ، الجلباب معلق على الشماعة ، والشبشب أمام الفراش

والطعميات الخمس تؤكل عن آخرها مع فتافيت العيش حتى لا تتبقى أية بقايا للطعام قد تجلب النمل ، ولب البطيخ مع بذر المنجة وقشرها ملفوف فى ورقة الطعمية ومقذوف به على طول الذراع من البلكون بحيث يستقر فى الأرض الفراغ المجاورة للبيت ، والملابس المتسخة مجمعة فى كوم بجوار الدولاب .

وكل شيء على ما يرام .. والأشيا . كما يقولون - رضا .. والنظافة تامة .. فيما عدا طبقة من التراب تكسو البيت كله « أو على وجه أدق الأسطح المكشوفة منه سواء كانت أرضا أم أثاثا » .. لم يكن لى حيلة فى رفعها الا بالقدر الذى أتلامس فيه مع هذه الأسطح فينتقل ما بها من تراب الى قدمى أو يدى .. مخلفا مكانه آثارا مطبوعة .

ومع ذلك .. ورغم الاتربة المخيمة فى الدار فقد كنت قريرا راضيا مستريح الضمير مطمئنا تمام الاطمئنان الى ان النظافة تامة .. حتى عدت ذات مساء فإذا بالبيت قد عصفت به عاصفة . دلتنى على أن العم العزيز قد وصل ، وكان أول مظاهر العاصفة هو سباق عنيف بين الصحف اليومية الثلاث : الجمهورية والأهرام والأخبار .. سباق ليس فى التوزيع بالطبع .. ولكن فى العدو .. فقد رأيت الأخبار تعدو وراء الجمهورية تلاحقهما الأهرام ، فى خشخشة وطقطقة ، لا يكاد يستقر بها المقام حتى تعود الريح المندفعة من بلكونة الصالة الى دفعها لتعدو فى أنحاء الصالة قارعة الباب كأنه إيذان ببدء السباق .

وعدوت وراء الصحف العابثة فأطبقت عليها إحدى المخدات فأوقفتها فى مكانها ووضعت حدا لعبثها أو عبث الريح بها .

وثانى مظاهر العاصفة هو سيل من ماء البطيخ ينحدر من المنضدة متدفقا على الأرض راسما مجرى فى تراب الأرض ملتويا متعرجا كأى نهر طبيعى ينحدر من منبعه الى مصبه .

وأدركت من ماء البطيخ أن العم قد اعتدى على مؤونتى من الطعام . وفتحت الثلاجة لأطمئن على المنجة الهندى فوجدتها سالمة من غير سوء : فقد حول بصره عنها الحشد الهائل من المنجة البيتى ذات الالياف « الطويلة

النيلة » التى يعتز بها العم أشد الاعتزاز كأنما ينوى أن ينشىء منها مصنعا للغزل والنسج يساهم به فى نهضتنا الصناعية .

وحاولت جهدى قبل أن أنام أن أعيد للدار نظامها وأن أصلح ما أفسده العم فى حدود قدرتى فدفعت حذاءه وشرابه وبعض أوراقه تحت الفراش حتى لا يشوه مظهرها النظام . ثم دفعت نهر البطيخ الى التدفق بمزيد من مياه قطعة أكلتها بحيث جعلته يستمر فى السير حتى يصب فى الحمام وهذبت مجراه كما هذب أحد وزراء الأشغال مجرى النيل حتى لا يشوه منظر الصالة .

وقبل أن أغمض عينى . طاف بذهنى خاطر أرقنى فقد ذكرت حادثة رواها لى عديلى وابن عمتى المهندس عبد العزيز مهران حين حملته الظروف الى العيش مع العم فى موقف مشابه ولم يكد يأوى الى الفراش ويستغرق فى النوم حتى أحس بيد تهزه وصوت يناديه فى عجلة فقام فزعا فإذا بالعم يصيح :

— قوم .. قوم ..

ثم مد يده اليه بحبة مانجة وهو يردف فى نفس لهجته العاجلة :

— منجة .. منجة .

وكان صاحبنا فى أشد الحاجة الى النوم ولم يكن يحس بأية قابلية لأكل المانجة ولا غير المانجة فتمتم معتذرا وهو يغمض عينيه ويلقى برأسه على الوسادة :

— معلهش يا خالى .. أصلى ماليااش نفس .

وصرخ به الخال متعجبا من بلادته .. التى تؤدى به الى رفض مثل هذه النعمة :

— قوم .. دى منجة مادقتش زيها ابدا ..

وأجاب عبد العزيز فى لهجة متوسلة والنوم يكاد يقتله :

— معلهش يا خالى .. خليها لبكرة الصبح .

— ما يمكنش ..

- ليه بس .

- أصلها لو فضلت لبكرة الصبح .. حاكلها أنا .. لأنني باصحى قبل منك .

وهكذا ذكرتني الحادثة .. بأن العم شديد التبكير فى اليقظة .. وأنه فى يقظته هذه أكول للمنجة على غير ارادة . فقد كان يخشى أن يأكل المنجة فى الصباح رغم حرصه على أن يطعمها لزميله فى وحدة البيت فى المساء .

وعلى ذلك فقد كانت هناك خطورة منه على منجتى الهندى .. ولا أظن منجته الطويلة التيلة ستفلح فى صد غائلته عنها ..

وهنا قضى قلقى على المنجة على كل محاولة للنوم من أن يقرب عينى .. وقفزت من الفراش بغير وعى وسرت الى الثلاجة وكأنى سائر فى نومى وفتحتها واطمأننت على وجود المانجة ثم أقمت أمامها سياجا منيعا من التين يحميها تماما من الأعين المتطلعة ..

وعدت الى الفراش قريرا ناعم البال . وفى الصباح استيقظت .. وقبل أن أفتح عينى تماما ذهبت الى الثلاجة للاطمئنان على المانجة ..

وفتحت بابها فإذا بسياج التين قد انهار والمانجة الهندى قد طارت ونظرت الى المنضدة فإذا بأطلال المانجة من بذر وقشر مسجاة عليها .. ولم أجد بدا من أن أتناول بعض حبات المانجة - الطويلة التيلة - على سبيل العزاء .

وارتديت ملابسى ، ووجدت العم يجلس على الأريكة يقرأ صحف الصباح التى أحضرها الجناينى ، ونظر الى من فوق النظارة وبادلته نظرة بنظرة دون أن ينبس أحدنا ببنت شفة حتى ولا كلمة تحية .. فقد تعودنا الا نضيع وقتنا فى التحية .

ومع ذلك فقد أحسست أنه لا بد لنا أن نقول شيئا ، ان اتفاق الجلاء قد أعلن فى اليوم السابق ورأيت أنه حدث يستحق أن نتبادل من أجله كلمة فقلت له :

– ما رأيك فى الجلاء ؟

– كويس جدا .. هذا خير ما فعلوا .

وانتهى الحديثي ، وتأبطت حقيبتى وتهيأت للخروج ، وقبيل أن أخرج تبرعت له بقرطاس الطعمية والرغيف .. فقد كان اليوم يوم الجمعة وكنت ذاهبا الى الهرم لمشاهدة أحد مشاهد فيلم « انى راحلة » وصممت أن اتناول فى طريقى سندويتشا من الفول فى ميدان الاسماعيلية .

وقد عرفت فيما بعد أن العم أكل الطعمية حاف فقد رأيت الرغيف فى الثلاجة .. وهى أول مرة أرى خبزا فى ثلاجة . وأستمر محافظا عليه بها حتى موعد سفره . وقبل أن يغادر البيت لفه بعناية كأنه تذكار ثمين ، ووضعه فى حقيبة ملابسه .. ويعلم الله ماذا فعل به بعد ذلك ، وإن كنت أخشى أن يكون قد وضعه فى ثلاجة الاسكندرية وأن يجده أحفادنا بعد خمسة الآف عام كما وجدنا نحن مركب الشمس .. وأن يستدلوا به على أشياء ما أظنها خطرت لنا ببال .

وعدت قبيل العصر الى البيت وفتحت الباب ولم أكد أصعد بضع درجات حتى وجدت لفافة ملقاة على البسطة .

وكانت اللفافة ورقة جرائد نضحت منها بقع زيت وأطبقت فى عجلة وإهمال على محتوياتها .

ورفعت اللفافة بين السبابة والابهام فى تقزز إذ لم أشك أن ما بها هى « زبالة » البيت حملها عمى فى ورقة الطعمية كما أفعل . ولكن جهوده فى سبيل النظافة نفدت عند هذه البسطة فألقى بها عليها وانصرف .

وحمدت الله الذى ألهمه السير فى طريق النظافة ودعوت أن يمنحه من لدنه جهدا يمكنه من استمرار السير فيه والقاء لفافة الزبالة خارج المنزل بدلا من القائها على السلالم .

وصعدت باللفافة .. وأمام باب الشرفة وعلى طول ذراعى وبكل ما فى من قوة قذفت باللفافة فى الأرض الفضاء المجاورة وصممت فى نفسى أن أعلم عمى هذه الطريقة فى النظافة .

وفى المساء حضر العم ، وكان أول ما فعل هو أن أتجه الى الثلاجة مباشرة وفتحها ثم اقفلها وعاد الى مسرعا وهو يسأل :

- أمال فين الكبيبة ؟

- الايه ؟

- الكبيبة .

- كبيبة ايه ؟

- كان فيه لفة مليانة كبيبة شامي جابها سامي « سكرتيره السابق » وأنا خارج فحطيتها على البسطة لغاية ما أرجع .

وأحسست الأرض تدور بى .. ووضعت يدى على رأسى ، ماذا أقول ..

أقول له قذفت بها من البلكون .. هكذا من غير مناسبة ، ومن الباب للطاق .

يقول .. مجنون ..

لقد قلت له أنى كنت ميتا من الجوع فأكلتها .

وصمت هو .. واعتبرها واحدة بواحدة .. لقد أكل المانجة .. وأكلت أنا الكبيبة .

ونمت ليلتها محسورا .

وإذا عرفتم أننى لا أحب فى حياتى كالكبيبة الشامى وأن خير ما وصلنى ردا على كتاب أهديته هو صينية كبيبة أرسلتها الى مديحة المحررة بروزا اليوسف ردا على « انى راحلة » .

إذا عرفتم هذا ادركتم مدى حسرتى فى تلك الليلة وأنا ملقى على الفراش متهم ظلما بأنى أكلت كيس الكبيبة . وعمى ينظر الى نظرة تأنيب ولسان حاله يقول :

- بقى ما كنتش تسيب لى ولو واحدة .

عقدة الإنجليزية

مررت اليوم بتجربة جديدة .

لقد تحدثت فى الاذاعة .. بالانجليزية .

والتجربة التى مررت بها مزعجة .. ورطتنى بها لبنى عبد العزيز .. أو العمة لولو .

فالحديث الى الجمهور أمر عسير .. وهو فى الاذاعة أشد عسرا .. فما بالكم إذا كان بالانجليزية ؟ !

أما عن مشقة الحديث الى الجمهور .. فقد سبق أن كتبت عنها .. وعن مهابتى لها وجزعى منها .. واعتقد أن سبب ذلك هو طبيعة الكاتب .. الذى خلق بطريقة تجعله أقدر على الانزواء والمراقبة منه على الظهور والاستعراض .. فهو يحب .. أن يجعل الناس تحت عينه بدل أن يكون هو تحت اعين الناس ..

أما عن التحدث الى الجمهور فى الاذاعة .. فلست أحس بأمر اكثر ارباكا واحراجا .. من أن يدفع فى فمى بميكروفون .. ثم تملى على أسئلة كأنى مذنب فى قفص الاتهام .. ويطلب منى الاجابة عليها .. فى هذه الآلة المفزعة التى تخفى وراء مظهرها البرىء الساذج ملايين الآذان .. المنصتة المترقبة .

ومع ذلك فقد عملتها .. بشجاعة .. وكنت أجرأ من توفيق الحكيم الذى يعتبر الميكروفون .. شبحا مخيفا .

وأنا أذكر أن سعد لبيب طلب منى ذات مرة أن يذيع إحدى جلسات مجلس الفنون .. وقلت له اننى لا أملك الاذن بهذا .. لأنى لا أستطيع أن أكره أعضاء المجلس على الاذاعة .. وإن كنت أستطيع أن أعاونه بشخصى -- بمنتهى الجرأة - فى كل ما يريد حتى ولو فى برنامج ساعة لقلبك .

ومع ذلك فقد طلب منى سعد أن آذن له بتركيب الأجهزة والاستعداد للتسجيل .. فلعل رئيس المجلس وأعضاءه يأذنون بها .. ولم أجد هناك ما يمنع بالاذن فليس فى مجرد تركيب الأجهزة ضرر .

وشرع سعد فى إجراءاته ..

وأحس توفيق الحكيم .. بالمؤامرة .

فكان الفزع الأكبر .. والطامة العظمى .

ووصف لى عبد الرحمن الشرقاوى .. كيف أقبل على المجلس فى ذلك اليوم الأغبر .. فوجد فى باب المجلس عربتين .. عربة الاذاعة .. وعربة بوليس حربى .

لقد أخذ يراجع نفسه .. فيما كتبه أمس .. وبدأ ضميره يعنفه فى شدة :

- يعنى كان لازم المقالة دى .. انت فاكر نفسك ايه .. انت بقيت دلوقت .. صاحب ولاد .. اتقى الله .

واجتاز عبد الرحمن حديقة المجلس وهو يتلفت حوله فى حذر وخشية .

وفى اقصى الحديقة وجد توفيق الحكيم .. وقد انكفأ بذقنه على عصاه وبدا عليه الشرود .

وحاول عبد الرحمن أن يطمئن من توفيق الحكيم عما يقلق باله فنظر الى الباب ثم تساءل فى حذر :

- ايه حكاية العربية اللى واقفة على الباب دى يا توفيق بك ؟

وبدا القلق على وجه توفيق الحكيم ورد عليه فى حنق :

- أنا عارف .. أهى بلاوى بتتحدف علينا .

وزاد خوف عبد الرحمن الشرقاوى وحاول أن يطلب مزيدا من التفسير .. فتساءل :

- هى جاية لمين ؟

- جاية لنا كلنا .

- الله .. كلنا ازاى .

- انا عارف .. أسأل سى يوسف السباعى .. احنا يعنى بناخد منه ايه غير كده ؟ .

وزاد ارتباك عبد الرحمن .. وزادت دهشته .. من أن تكون عربة البوليس الحربى قد أتت .. لجمع المجلس بأكمله .. و .. عاود تساؤله قائلا :

- لكن .. هى العربة دى حاتساعنا كلنا .

- وتساعنا ليه .. ما هم حايخشولنا جوه ..

واستبد العجب بعبد الرحمن عندما نصور ما يمكن أن يحدث من دخول البوليس .. وحدوث معركة بينه وبين المجلس ..

ومصمص توفيق الحكيم شفتيه قائلا فى جزع :

- أهى مصيبة والسلام .

ورد عبد الرحمن وهو يطرق بأسف :

- أيوه .. مصيبة لكن ايه بس سببها .. البوليس الحربى ماله ومال المجلس .

ورفع توفيق الحكيم رأسه وتساءل فى دهشة :

- بوليس حربى ؟ .

- أيوه .

- وايه اللى جاب سيرته دلوقت ؟ .

- ما هى اللى واقفة ع الباب عربية بوليس حربى .

- بوليس حربى ايه يا جدع انت .. دى عربية اذاعة .. هو فيه مصيبة أكثر من الاذاعة .

وهكذا اعتبر توفيق الحكيم الاذاعة .. مصيبة يتساوى وقعها لديه .. مع وقع البوليس الحربى .. عند عبد الرحمن الشرقاوى .. وجلس الاثنان كل منهما يندب حظه .. حتى اتضح ان عربة البوليس الحربى كانت تحمل أحد الضباط الذى جاء للمجلس ليزور صديقا له .. كما اتضح لتوفيق الحكيم أن الاذاعة قد عفت عنه ..

هذا هو الذعر الذى أحدثه مجرد حديث فى الاذاعة باللغة العربية ..

فما بالكم .. إذا كانت بالانجليزية .

انها لا شك تحتاج الى مخلوق جرىء .

ولكى أوضح لكم .. مبلغ جرأتى عندما أقدمت على الاذاعة بالانجليزية .. أقول لكم أنى رسبت فى حياتى مرتين .. مرة فى السنة الأولى الثانوية .. ومرة فى السنة الرابعة .. وكان رسوبى فى المرتين .. دور اول .. ودور ثان .. فى اللغة الانجليزية .

وعندما تخرجت فى الكلية الحربية الى سلاح الفرسان .. اخترت للذهاب الى بعثة فى انجلترا .. ثم ذهبت - كما سبق أن رويت - للقاء وزير الحربية حسين سرى .. وسألنى عن سنة تخرجى .. وكان على أن أجيب باللغة الانجليزية .. وعندما استطعت أن اتمالك نفسى .. وارتب نطقى لعام ١٩٣٧ .. كانت البعثة قد طارت .. للذى بعدى .

وفى كلية أركان حرب .. لم أضق بشىء قدر ضيق من الدراسة باللغة الانجليزية .. وكانت هى وحدها التى أثرت على درجة تخرجى .

تأتى لبنى عبد العزيز .. لتقدمنى فى البرنامج الاوروبى لشخصية

الأسبوع وتطلب منى التحدث الى الناس .. بالانجليزى .

« لا يا ست لبنى - حد الله بينى وبينك .. أنا لا شخصية ولا حاجة .. بس اعتقينى لوجه الله وحياة ابوكى » .

وأفهمتها أن المسألة .. عسيرة جدا .. وذكرت لها تاريخى المجيد فى اللغة الانجليزية .. وأكدت لها ان ثلاثة ارباع كرهى للاستعمار الانجليزى هو كرهى للغة الانجليزية ولما جنيته منها فى تلمذتى .

بل انى ، من فرط تحكم عقدة الانجليزية من نفسى لا اتساءل كيف استطاع جمال عبد الناصر أن يحقق المعجزات التى حققها .. بل اتساءل كيف استطاع أن يتحدث بالانجليزية كما يتحدث الآن .. مع الدبلوماسيين والصحفيين الاجانب .

وحاولت أن أزوغ من الحديث .

ولكن لبنى أصرت عليه واقنعتنى كما تقنع الأطفال عندما تحاول أن تشكمهم بالحقنة .. بأن المسألة بسيطة جداً .. وأنى سأحضر ما اريد قوله وأتلوه كما أقرأ أى كتاب مطالعة .

وحذرتها من الاسئلة المفاجئة .. وبدأت أتلو الحديث .. كما كنت أتلو قطع المحفوظات فى صباى وكما كنت أنشد :

I have two eyes and I can see

وأخيرا انتهى الحديث .. وتنفست الصعداء ونظرت الى لبنى ضاحكة تماما كما تنظر الى الطفل بعد ان تشكمه بالحقنة .. وقالت :

- شفت بأه .. مش حاجة سهل قوى .

- بسيطة بس أوعى تعمليها تانى .

هدايانا

زرت ذات مرة صديقا مريضا ..

وكان على أن أحمل له هدية .

وفكرت فى نوع الهدية .. فلم أجد امامى سوى هدايانا التقليدية للمرضى .. علبة مارون أو شكولاته .. أو سبت زهور .

وقبل أن اقدم على شراء الهدية .. تذكرت رقدتى فى المستشفى بعد أن أجريت عملية الأعور . وتذكرت تجربة الهدايا التى مررت بها .

لقد رقدت فى المستشفى ٧ أيام .. وقبل أن أغادر المستشفى كان على أن أقوم بعمليتين : عملية دفع الحساب .. وعملية التصرف فى ٤٠ طبق مارون و ٢٠ علبة شوكولاتة وما تبقى من ٣٠ سبت زهور .

ولم تكن العملية سهلة .

فقد كان علي إما أن آكلها .. وهذا أمر يتطلب عودتى الى المستشفى لعلاج معدتى من آثارها .. وعودتى الى المستشفى .. ستحتم عودة الزوار الى .. وعودة الزوار الى تعنى مزيدا من المارون والشكولاته .. التى يتحتم على أن أتخلص منها بالاكل .. وتعود المسألة من جديد .. ويصبح على أن أقضى عمرى فى الرقاد فى المستشفى .. واستقبال الزوار .. وأكل المارون .

والحل الثانى .. أن أتصدق بالهدايا على المساكين .. فأذهب الى الحسين

والسيدة .. وافرق على الشحاذين .. مارون جلاسيه .. وشوكولاتة .. وباقات ورد .. ثم أسلم نفسي بعد هذا .. الى اقرب مستشفى مجاذيب .. وبيدى - كما يقول المثل - لا بيد عمرو .

والحل الثالث .. هو ان أفتح محلا لبيع المارون والشوكولاته .. الرجوع .. أبيع فيه .. هداياى .. والمرتجع من هدايا الكثير من ضحايا المارون والشوكولاتة بالتخفيض .. الى الذين ينوون أن يعيدوها الى المستشفيات مرة اخرى .

وأعتقد أن المحل سيروج جدا .. فسيوفر على المهدى جزءا من ثمن الهدية .. وسيتيح للمهدى اليه .. إعادة هديته .. والانتفاع بثمنها .. فيما يحتاج اليه .

وسينتهى الأمر .. بعلب المارون والشيوكولاتة .. الى التحرك فى دائرة مفرغة بين المرضى والزوار .. والزوار والمرضى .. عن طريق المحل .

ولست ادرى بعد كل هذه الغلبة .. لماذا لا يوفر الزوار على أنفسهم ثم هداياهم .. ويكفيهم جدا مجرد إظهار مشاعرهم وتمنياتهم الطيبة .

وإذا كان لا بد من الهدية .. فلماذا لا يدفعون .. بدل هدية .. ويتركون للمهدى اليه .. أمر شراء ما يحتاج اليه .

لو أنهم فعلوا هذا معى .. لخرجت من العملية بما لا يقل عن مائتى جنيه .

كنت ادفع منها مائة تكاليف العملية والمستشفى .. ثم أخرج بالمائة الأخرى .. ربح عملية .

وليس على بعد ذلك .. إذا احتجت الى نقود .. الا أن أدخل المستشفى .. لأمكث أسبوعا .. وأخرج .. بمائة جنيه .

ولا أظن هناك عملا .. أكثر راحة وأوفر ربحا من هذا .

وانا لا أنكر هدية .. قدمت الى .. فى موضعها .. كالهدية التى قدمت

الى من سلاح الفرسان عندما تركت السلاح .

لقد بدأ الأمر فى مثل هذا الوقت من العام الماضى .. عندما عرف الضباط أنى سأترك سلاح الفرسان الى مجلس الفنون والاداب .

وكان أول من تقدم الى هو عدلى سعيد قائد مدرسة المدرعات وقتئذ وسألنى قائلا فى صراحة :

- ضباط المدرسة عايزين يقدموا له هدية وداع .. فايه الحاجة اللى انت محتاج لها علشان يجيبوهالك ؟ .

ولم أجد طريقة للاهداء خيرا من هذا .. ولكننى .. كنت مصمما على أن أجنب الضباط تكاليف الهدية .. لأنى كنت أعرف كيف يضيقون بها .. ولا سيما عندما يكثر التوديع .. وتكثر الهدايا .. ولأنى لا أستطيع أن أجزم أن كل واحد منهم سيقدمها مرحبا .. ولأنها شيء لا ضرورة له .

وأخبرت عدلى بأنه ..

- مافيش داعى يا عدلى .. كفاية نسلم على بعض .

- هم مصرون أنهم يجيبو لك حاجة .

- خليهم يجيبولى سلسلة مفاتيح بخمسة صاغ .

- لا .. هم عايزين يجيبولك هدية محترمة .. فأحسن اختار أنت بدل ما يجيبولك حاجة متعجبكش .

ومع ذلك أصررت على رفضى .

وتوالت على بعد ذلك أسئلة بقية الوحدات . جاءنى حسن مراد وصلاح طاهر وابراهيم الموجى .. يسألاننى نفس السؤال .

وأجبت بنفس الرد ..

ثم جاءنى البكباشى سيد زكى يبلغنى أمر قائد السلاح اللواء عبد العزيز مصطفى يسألنى عن الهدية التى أطلبها من رئاسة السلاح .

وضحكت وقلت لسيد زكى :

- ايه الحكاية .. دانا حاخرج من السلاح صاحب ثروة .. وأنا كنت تايه عن الشغلانة دى من زمان ليه .

وأصررت على رفض الهدية . وأصر سيد زكى على إحضارها ، ثم ذهبت الى البيت وقصصت على زوجتى ما حدث .. ثم رأيتها قد سرحت برهة ثم قالت ضاحكة :

- كنت قل لهم يجيبولك زهرية كريستال .

- هو ايه ده ؟ . اشمعنى الزهرية الكريستال دى .

- أصلها الحاجة اللى نفسى فيها .. ومستخسرة أدفع فيها فلوس .

- مش معقول اقولهم هاتولى زهرية كريستال .. لأن إذا كان الواحد ناوى يختار فلازم يختار حاجة ضرورية .. مش زهرية كريستال .. وعلى العموم أنا رفضت خالص .

- لكن هم حايقدمولك .. فبدل ما يقدمولك حاجة مالهاش لزوم .. قولهم يجيبو لك الزهرية الكريستال .

- خلاص أنا رفضت وانتهينا .. يجيبوا اللى هم عايزينه .

وقبل أن أخرج ذكرتنى بأن أحضر صينية القهوة التى سبق أن طلبتها منى عدة مرات .

وبعد الظهر ذهبت الى الرسالة الجديدة ولقيت عبد العزيز صادق فنظر الى الحقيبة التى أحملها .. وقال لى مؤنبا :

- يا أخى مش ربنا حايتوب عليك من الشنطة الكحيانة دى ؟ .. أنت دلوقت بقيت سكرتير مجلس الفنون والآداب لازم تشيل شنطة عليها القيمة .

- آهى كويسة .. مش شايلة الأوراق اللى فيها والسلام .

وفى اليوم التالى ذهبت الى السلاح ..

وكان أول من زارنى عدلى سعيد .

سلم على بيد .. وباليد الثانية .. سلمنى حقيبة أنيقة .

وكان ثانى من زارنى هو الموجى .

ولم يسلم على لأنه كان يحمل بكلتا يديه .. صينية كبيرة من الفضة .

وزارنى بعد ذلك حسن مراد يحمل مصحفا كبيرا .. وصلاح طاهر يحمل طبقا من الفضة عليه شارة الفرسان .

وفى المساء دعيت الى حفلة شاى .. أقامها لى مدير السلاح فى الميس .

ودخلت الميس الذى دخلته منذ عشرين عاما .. وورائى العربة البروسيانى يجرها البغل القبرصى وقد حملت عليها السرير والدولاب الذى أحضرته من بيتنا فى روض الفرج لأضعه فى حجرتى فى الميس .

وجلست بين الضباط .. فى نفس الصالة التى كنت اتناول فيها الفطار والغداء والعشاء منذ عشرين عاما وسط الضحك والتهريج .

ولكن الجلسة .. أهاجت فى نفسى ذكريات هاجعة .. الجدران الصماء .. والأثاث القديم والحديقة التى تبدو من النافذة بنخيلها الأبيض .. كل هذا تآلف واتسق .. وجسد لى جزءا عزيزا من عمرى .

وأحسست أنى أضعف .. وأتخاذل .. أمام حياتى الماضية .

وحاولت أن أضحك .. ولكن احساس البكاء فى نفسى كان أغلب وأشد .

وتكلم الموجى .. وتكلم عبد العزيز مصطفى .. ومدحا فى .. بما لا أعتقده فى نفسى وما لا كنت أظنهما يعتقدانه فى .

ثم نهضت لأتكلم .

ولست أدرى ماذا قلت .

لقد رددت بعض ما اعتمل فى نفسى .. وبعض ما بعثته الجلسة فيها من ذكريات الصبا الحلوة .. وبعض ما تملكنى من احساس لرفاقها وأيامها

ومواطنها .

وجلست وقد خيم على من حولى صمت حزين .

وقبل أن ننهض لنودع بعضنا البعض . قام عبد العزيز قائلا :

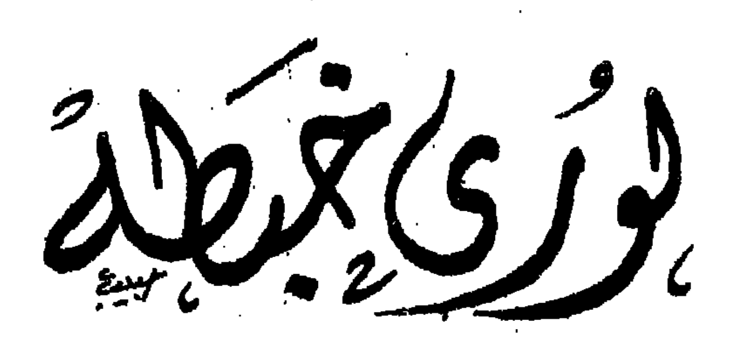
- انتظر .. لقد تذكرت شيئا .. لقد سألناك أن تحدد الهدية فرفضت .. وكان علينا أن نختار نحن .. فخذ هذه وننبك على جنبك .

ثم مد يده وناولنى .

زُهرية كريستال !!

وحتى الآن لا تصدق زوجتى .. أنى لم أحدد لها نوع الهدية :

وحتى الآن .. لا يعرف عبد العزيز مصطفى .. أن هديته .. هى الشىء الوحيد على ظهر الأرض الذى كنت اتمنى أن يقدمه لى .



رأيت فيلم « الطريق المسدود » ورأيت فيه صديقى الممثل أحمد مظهر .

ومن قبل رأيته فى فيلم « حتى نلتقى » وفى فيلم « رد قلبى » .

وأحسست بالاغتباط وأنا ارى صديقى وهو يمثل .. بطريقة تبعث على الطمأنينة على مصيره كممثل .

ولم يكن اغتباطى لمجرد نجاح صديق فى مصير اتجه اليه .

بل كان اغتباطا .. لأنى اعتبر نفسى المسئول الأول عن هذا المصير .

هل أقص عليكم القصة ..

بدأت صداقتى بأحمد مظهر وأنا أعلمه ركوب الخيل في فرقة الركبدارية فى سلاح الفرسان .. (ولست أقولها على سبيل التفاخر .. لأنه أضحى وثلاثة أرباع الذين علمتهم ركوب الخيل ابطالا فى الفروسية .. وأنا لم أصبح شيئا) .

كان مظهر شديد التعلق بالركوب . وكان وقتذاك يركب حصانا أسود اسمه السردار .. وقد كان على كبر سنه مدربا أصيلا .

وفى كل يوم كان يأتى الى شاكيا أنه لقى السردار والعساكر يركبونه فى طابور كذا .. أو يجرون به فى مسابقة كيت .. وأنهم ينهكونه ويسيئون معاملته .

وأجرى تحقيقا مع العساكر فيتضح أن السردار لم يخرج من الاسطبل وأن الحصان لا يركبه الا مظهر .

وأخيرا اتضح لي أنه لا يميز السردار الا بسواد لونه .. وأنه يعتقد أن كل حصان أسود في السوارى هو السردار .. ولم يهدأ حتى أفهمته أن لدينا في السوارى مائة حصان أسود ، وأن عليه أن يميز السردار بشيء آخر غير السواد ..

وعندما انتهت فرقة الركبدارية .. الحق مظهر برئاسة سلاح الفرسان وعمل مساعدا لأركان حربه .. وكانت هوايته وقتذاك تلميع أحذية الركوب الطويلة (لنفسه طبعا) ومداعبة قطط السلاح .

وأذكر أني كنت وقتذاك مكلفا بعمل شارة نحاسية لسلاح الفرسان وكنت منهمكا مع ابن المرحوم توفيق بشاى في وضع تصميمها .. واصطحبته معى ذات يوم لعرض التصميم على مدير السلاح .. وشعرت وأنا أجتاز به بوابة السلاح بمدى الرهبة التي تركها مظهر القرقول بالمزاريق في نفسه .. وتمنيت أن تمر بنا دبابة ونحن في طريقنا الى الرئاسة لتزيد من رهبته .. ولم يبخل على الله بالأمنية .. ومرت بنا دبابة تصم الآذان بأزيزها .. وهمس الى صاحبى متسائلا :

- عندكم كثير من دى ؟ ...

- كثير خالص .. مائتين .. ثلاثمائة .

وأذكر أنها كانت إحدى دبابات خمس أخذناها من الجيش الانجليزى . وكانت الاربع الباقية في الجراج .

وتوقعت أن تزداد رهبته .. عندما يهل على الرئاسة ويلمح يافطة الأركان حرب ..

وفعلا .. أحسست به يصلح هندامه ونحن نقف أمام اللافتة .

وطرقت الباب .. ودخلت .. ودخل هو فى أثرى .

وعلى المكتب .. وجدت مظهر .. أعنى وجدت حذاءه الطويل .. مستقرا على المكتب .

ولم يكن مظهر يمد ساقيه بالحذاء فى كبرياء كما قد يتوهم البعض .. بل كان الحذاء يستقر وحده بلا ساقين على المكتب .

وكانت الساقان تقفان وحدهما بالشراب وبنطلون الركوب .. وداخل الحذاء كانت تستقر إحدى ذراعى مظهر .. والذراع الأخرى منهمكة فى مباشرة هوايته المحببة .. فى مسح الأحذية وتلميعها .

وارتبكت أنا .. فقد أضاع مظهر كل الرهبة التى أمتلأت بها نفس صاحبى من سلاح الفرسان .

ولم يرتبك مظهر .. بل ترك خرق التلميع ومد يده فصافحنا ببساطة :

- تفضلا .

وأنزل الحذاء .. ووضعه جانبا .

وبدأت الحديث .

ولكنى لم أكد انطق بكلمتين حتى وجدت مظهر قد فتح درجا على يمينه ثم أخرج شقة عيش .. وعزم على وعلى صاحبى قائلا ببساطة :

- تفطر معايا ؟؟ !

وقلت له فى اقتضاب :

- متشكر .

ولكنه أعاد يلح قائلا :

- ده فيها لحمة .

ثم بدأ هو يقضم العيش واللحمة بشراهة .

وكان على أن أجلس لأرقبه فى افطاره .. وأرقب هيئة سلاح الفرسان .

تتبخر من نفس صاحبى .

وتمنيت أن يدخل أحد الرؤساء .. لعله يرتدع فيلبس حذاءه . ويكف عن أكل ساندوتش اللحمة .

وطرق الباب .. وتوقعت خيراً .

وقال مظهر :

- تفضل .

وتفضل الطارق بالدخول .. وكان صاحبنا ابراهيم الموجى .

وأوجست من دخوله خيفة .

لأن الموجى لا يمكن أن يردع مظهر .. بل هو قد يحتاج الى أحد لكى يردعه عن أى عمل فجائى يمكن أن يطير ما تبقى من هيبة الفرسان .

وكان أول ما فعله مظهر هو أن مد يده بشقة اللحمة فى كرم قائلا للموجى :

- تفطر يا بو خليل .

- فطرت .

وحمدت الله أن الموجى ترفع عن ساندوتش اللحمة . ولكن مظهر عاد يقول ملحا :

- ده فيه لحمه !!

ورأيت الموجى يردد فى أعجاب :

- كده !!؟

ثم يمد يده فيخرج اللحمة من داخل الساندوتش ويلتهمها بمنتهى البساطة .

وسحبت صاحبى من يده وطرت من الغرفة قبل أن يطير ما تبقى من هيبة السلاح .

وكنت فى ذلك الوقت أذهب الى السلاح بعربة بيك آب .. وكانت العربة تمر ببيتى ثم تتجه بى بعد ذلك الى العوامة التى يقطن بها مظهر .

وكما كانت هواية مظهر .. تلميع الاحذية .. كانت هوايتى .. صنع السدود والحواجز .. التى يقفز عليها الخيل .

وكانت هوايتى تدخل فى نطاق مهنتى كمعلم لفن الركوب .. وكان المفروض على أن أنظم حلقة لقفز السدود .. تشابه أى حلقة قفز مما تحويها نوادى الفروسية ..

ولكن العين كانت بصيرة واليد قصيرة .

ولذا كان على أن أمارس صنع السدود كهواية .

وأنا شديد التركيز فى كل ما أفعل .. وكنت لا أنظر الى أى شىء فى العالم حينذاك .. الا من زاوية صلاحيته لأن يكون سداً لقفز الخيل .

وفى ذات صباح عندما مررت بمظهر لآخذه من العوامة .. لمحت سور العوامة المصنوع من درابزين خشبى .. وعجبت لنفسى كيف غابت عن ذهنى صلاحيته لأن يكون سدا .

وهززت السور فوجدته خفيفا .. سهل النزع .. سهل الحمل .. ولم يكد مظهر يدخل العربة بجوار السائق .. حتى رفعت الدرابزين ووضعته فى صندوق العربة .. ودلفت بجوار مظهر دون أن يحس بما فعلت .

وانطلقت بنا العربة حتى وصلت الى السلاح .

وقفزت قبل مظهر وشددت السور فألقيت به على الأرض .. وأنطلقت العربة تحمل مظهر الى مكتبه .

وفى الظهر .. لم يكد ينزل من العربة .. حتى سمعت صوتا من داخل العوامة يطلب منه أن يبلغ البوليس لأن سور العوامة سرق .. وهم مظهر بالعودة الى العربة .. وهو يضرب كفا بكف قائلا :

- تصور الجرأة .. يسرقوا سور العوامة .

وقلت ضاحكا :

- والاجرأ من كده .. يعملوه سد .

وانطلقت بالعربة .. وفغر مظهر فاه .. وتذكر السد الوجيه الذى كان يقفز عليه طوال اليوم .

وافترقنا بعد ذلك .. نقل هو الى آلاى الدبابات .. ونقلت انا الى الكلية الحربية .. فلم نلتق الا بعد سنوات عشر .. فى الفرسان مرة أخرى .. أنا كقائد للتدريب .. وهو كقائد لمجموعة مدرعة .

وفى ذات يوم سرنا فى السلاح نتجاذب أطراف الحديث ، وقلت له :

- انت عارف أن « رد قلبى » حا تطلع فى السينما .

- حقيقى .. مين حا يمثل فيها .

- والله لسه بنختار الأدوار مع عز الدين ذو الفقار ومدام آسيا .

وتذكرت أنه قام ذات مرة بدور أبى جهل فى فيلم ظهور الاسلام .. فقلت مازحا :

- ايه رأيك لو تمثل فيها .. أنت ما وحشكش التمثيل .

وأجاب هو بنفس اللهجة المازحة :

- يا ريت .

وفى المساء جلست مع عز الدين ذو الفقار وعرضت عليه اسم مظهر .. وفى اليوم التالى التقى مظهر بعز الدين وآسيا .. وفى اليوم الثالث وجدت منهما حماسا له .. واستقر رأيهما على أن يسند له دور النبيل علاء .

وجرت المسألة بمنتهى البساطة .. وكان علينا أن نحصل على اذن من القوات المسلحة .. ولم نتخيل الحصول عليه بالأمر الشاق .. بل بدا لنا مجرد مسألة روتينية ..

وتعاقدت آسيا مع مظهر .. وبدأ يعد ملابس الدور .. ويجهز نفسه للقيام

به .

وتأخر اذن القوات المسلحة .

وعندما حاولنا استعجاله .. علمنا أن قيام مظهر بالتمثيل أمر متعذر .. لأنه لا يتناسب مع مركزه كقائد مجموعة مدرعة .

وأسقط فى يدنا .

وظننت أن مظهر سيعتذر عن القيام بالدور وتنتهى المسألة .

ولكنى وجدته ينبىء المسئولين أنه يود لو قام بهذا الدور وأنه إذا كان هناك مساس بمركزه فهو مستعد أن يتخلى عنه وأن يحال الى المعاش لأنه يعتقد أن يستطيع أن يخدم بلده فى هذا المضمار كما يخدمه فى أى مضمار آخر .

وبعد يومين .. أجيب الى طلبه .. وأحيل الى المعاش .

وكانت مفاجأة شديدة لى .. فقد أحسست اننى المسئول الأول .. عن هذا المصير الجديد الذى دفعت به اليه .

وبعد بضعة ايام بدأ التصوير ..

وكان المشهد الأول فى حجرة المائدة بقصر الأمير بالمطرية .

وكانت اللقطة الأولى تضم الأمير (أحمد علام) وابنته (مريم) وابنه (مظهر) حيث ينبىء الأخير أباه الأمير بمقتل الحصان عنتر بواسطة أحد اللوريات .

وكان الحوار يسير كالآتى ..

يقول مظهر :

– عنتر مات .

فيصبح الأمير :

– ازاى ؟؟ .

فيجيب مظهر وهو يهز كتفيه :

- لورى خبطه .

وبدأت بروفات اللقطة .. وبدأ الحوار .. وكان المشهد الأول الذى يلتقط فى الفيلم .. بالألوان والسينما سكوب .

وطالت البروفات .. وتكرر الحوار .

ومضت أربع ساعات .

ومظهر .. يقول .. عنتر .. لورى خبطة .

وآذنت الشمس بالغروب .

وانتهى اليوم .

ومظهر يدخل .. ويخرج ليقول :

عنتر .. لورى خبطه .

وأخيرا .. انتهت اللقطة .. وبدأ العمال يلمون عددهم .

ووضع مظهر ملابسه فى العربة .. ونظر الى وقد بدت عليه امارات اليأس .. وهز رأسه قائلا :

- بقى ده أسمه كلام ! .

وسألته مستفسراً :

- ايه هو ؟؟ ..

ورفع كفيه متسائلا فى يأس :

- بقى أروح المعاش . عشان عنتر .. لورى خبطه !! .

وضحكت .. وحاولت أن أهون عليه .. وأنا أحس فى قرارة نفسى بالندم على ما فعلته به . .

ثم رأيته بعد ذلك فى فيلم رد قلبى .. وحتى نلتقى .. والطريق المسدود .

ولم أعد أحس بالندم .. فقد رأيته يؤدى كل أدواره بمنتهى المهارة .

وأحسست .. أنى دفعته .. الى المصير الصحيح .. وأن تحوله من القوات المدرعة الى السينما .. قد افاد السينما .

والقوات المدرعة .. !

رقم الايداع ٢٣٥٢ / ٨٧